الاستغناء بين النحاة والمفسرين

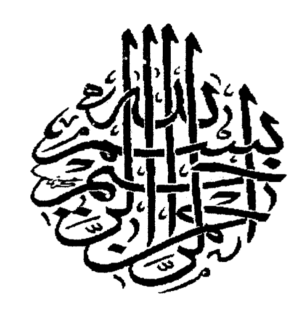
دراسة نحوية أسلوبية من خلال فواصل القرآن الكريم

دكتور

خليل عبد العال خليل

الأستاذ المساعد بقسم النحو والصرف والعروض

كلية دار العلوم – جامعة الفيوم


بسم الله الرحمن الرحيم



أولا: الاستغناء في كتب اللغة

إذا كانت كتب اللغة قد تحدثت عن مادة غنى بأنها تفيد معنى الترك والاكتفاء فقد ورد عن العرب قولهم" وليس عنده غناء" أى ليس عنده ما يغتنى به وورد في الحديث الشريف " خير الصدقة ما أبقت غنى " أو ما كان عن ظهر غنى" أي: ما فضل عن قوت العيال وكفايتهم، وكانت استغناء منك ومنهم عنها"

وفي حديث الجمعة:

من استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غنى حميد"[١]

ثانيا: الاستغناء في كتب النحو:

إذا كانت كتب اللغة كذلك فإن هذا المعنى قد تردد على ألسنة أهل صناعة النحوَ ورواية اللغة، ووردت للاستغناء عندهم معانٍ أخرى، سوف تجيء بعد قليل:

قال سيبويه: ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يُعد ساقطاً"[٢]

وقد عقد ابن جنى للاستغناء باباً في الخصائص

قال فيه:باب "في" الاستغناء بالشيء عن الشيء " ثم قال ابن جنى "قال سيبويه: واعلم أن العرب قد تستغني بالشيء عن الشيء حتى يعد المستغنى عنه مسقطاً من كلامهم البتة"

فمن ذلك استغناؤهم بترك عن "وَدَعَ"، و "وَذَرَ" فأما قراء بعضهم ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ وقول أبى الأسود " حتى ودعه فلغة شاذة "[٣]

وكان ابن جنى قد قال في موضوع سابق:اعلم أن الشيء إذا اطرد في الاستعمال وشذ عن القياس فلا بد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنّه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره ألا ترى أنك إذا سمعت "استحوذ واستصوب أديتهما بحالهما، ولم تتجاوز ما ورد به السمع فيهما إلى غيرهما، ألا تراك لا تقول في

استقام: استَقْوَمَ، ولا في استساغ: استَسْوَغَ ولا في استباع استَبْيَعَ.. فإن كان الشيء شاذاً في السماع مطردًا في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله.

أما قولهم: وَدَعَ الشيءُ يَدِعَ-إذا سَكَتَ – فاتدع فمسموع متبع، وعليه أنشد بيت الفرزدق:

وعضُّ زمانٌ يـــا ابـــنَ مـــروان لـــم يَـــدعْ

مـــن المـــال إلا مـــسحتٌ أو مجلَّـــفُ

فمعنى لم يدع "بكسر الدال، أى يتدع ولم يثبت والجملة بعد زمان "في موضع جر صفة لزمان والعائد محذوف للعلم بموضعه، وتقديره: لم يدع فيه أو لأجله إلا مسحت أو مجلف "

وقد استغنت العرب بعشرة عن خمسة خمسة وبواحد عن اثن وباثنين عن واحد وواحد أو اثنى واثن "

ويقول ابن جنى: باب في العدول عن الثقيل إلى ما هو أثقل منه لضرب من الاستخفاف اعلم أن هذا موضع يدفع ظاهره إلى أن يعرف غَوْره وحقيقته ؛ وذلك أنه أمر يعرض للأمثال إذا ثقلت لتكريرها، فيترك الحرف إلى ما هو أثقل منه ليختلف اللفظان، فيخفا على اللسان وذلك نحو الحيوان، ألا ترى أنه عند الجماعة – إلا أبا عثمان من مضاعف الياء وأن أصله حيَيَان، فلما ثَقُل عدلوا عن الياء إلى الواو، وهذا مع إحاطة العلم بأن الواو أثقل من الياء، لكنه لما اختلف الحرفان ساغ ذلك، وإذا كان اتفاق الحروف الصحاح القوية الناهضة يكسره عندهم حتى يبدلوا أحدهما ياء نحو دينار وقيراط وديماس، وديباج(٤).

ولعلنا نلاحظ أن ابن جنى في هذا النص قد استخدم الاستغناء بمعنى العدول، فكأن العرب قد استغنت عن الياء بذكر الواو في لفظة حيوان "بدلاً من "حييان" فهذا عدول عن حرف إلى حرف آخر جرت الألسنة بذكره، وهو في الوقت نفسه استغناء عن ذكر الياء بذكر الواو، وهذا هو نفس المعنى الذي

سيجيء فيما يأتي من صفحات تحت عنوان معانى الاستغناء وصوره عند النحاة:-

فقد تحدث الأنبارى عن الاستغناء فقال: وقد يستغني بالحرف عن الحرف في بعض الأحوال إذا كان في معناه " ويقول في موضع آخر: قد يستغنون ببعض الألفاظ عن بعض إذا كان في المذكور دلالة على المحذوف(٥)" ويقول السيوطى في الأشباه والنظائر: قد يستغنون بالشيء عما هو معناه "(٦).

وبناء على هذا الفهم فقد تعامل النحاة رحمهم الله مع ظاهرة الاستغناء في اللغة، وفسروا بها كثيراً من التصرفات اللغوية، على مستوى اللفظ أو الصوت أو التركيب.

معانى الاستغناء وصوره عند النحاة:

١- الاستغناء بمعنى الحذف والترك:-

فقد استخدم سيبويه الاستغناء بمعنى الحذف وذلك عند حديثه عن [هذا – وذا] حيث قال: ولكنهم حذفوا ذا لكثرة استعمالهم إياه، وتصرفهم فيه حتى استغنوا عنه [بهذا] (٧).

واستخدمه بمعنى "الترك" عند حديثه عن قوله تعالى: " وَالْحَافِظُونَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَات وَالذَاكرينَ اللهَ كَثيرًا والذاكرَات " الأحزاب ٣٥، قال سيبويه: " هذا مما يقوي تركه لعلم المخاطب به حيث لم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول استغناء عنه، ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " ونخلع ونترك من يفجرك " ثم قال سيبويه: "وجاء في الشعر من الاستغناء أشد من هذا ومن ذلك قول قيس بن الخطيم:

نَحْـــنُ بمَـــا عنْـــدَنَا وَأَنْـــتَ بمَـــا

عنْـــدكَ رَاض وَالـــــرأيُ مُخْتَلـــــفُ

وقول ضابئ البُرْجُمي:

فَمَـــنْ يَـــكُ أَمْــسَى بالْمَدينَـــة رَحْلُـــهُ
فَـــإنّي وَقَيـــارًا بهَـــا لَغَريـــبُ

وقول ابن أحمر

رَمَـــاني بِـــأَمْر كُنْـــتُ منْـــه ووَالـــدي
بَريئًـــا وَمِـــنْ أجْـــل الطـــوي رَمَـــاني

فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد لأنه قد علم أن المخاطب سيستدل به على أن الآخرين في هذه الصفة (أي يدخلون فيها) والأول أجود ؛ لأنه لم يضع واحدا في موضع جمع، ولا جمعا في موضع واحد.

ونقل سيبويه عن الفرزدق قوله

إنّـــي ضَـــمنْتُ لمَـــنْ أتَـــاني مَـــا جَنَـــى
وَأَبَـــى فَكَـــانَ وكُنْـــتُ غَيْـــرَ غَـــدُور

قال سيبويه: ترك أن يكون للأول خبر حين استغنى بالآخر لعلم المخاطب أن الأول قد دخل في ذلك(٨).

فقد نص سيبويه على حذف الفعل استغناء عنه لكثرة الاستعمال في قولة: يا عبد الله، والنداء كله، قال: " حذفوا الفعل لكثرة استعماله، هذا في الكلام، وصار ياء بدلا من اللفظ بالفعل "، وهذا ليس معناه الحذف بل معناه الا بدال لأننا استخدمنا ياء النداء بدلا من الفعل " (٩).

وتكرر المعنى نفسه – الاستغناء بمعنى الحذف – في كلام سيبويه أيضًا وذلك عند تعليقه على قول ذى الإصبع(١٠).

غـــدير الحـــيّ مـــن عـــدوا
ن كـــانوا حيـــة الأرض

ومن ذلك ما نقله سيبويه عن يونس بن حبيب عندما نقل يونس قولهم العرب: مَنْ أنت زيدًا " فزعم يونس أنه على قوله: مَنْ أنت تذكر زيدًا، ولكنه كثر في كلامهم واستعمل واستغنوا عن إظهاره "(١١).

وفي موضع آخر يقول سيبويه أو مثل ذلك قول العرب: مَنْ كذب كان شرًا له، يريد كان الكذب شرًا له إلا أنه استغنى بأن المخاطب قد علم أنه الكذب، ومن ذلك قوله: أما قول الناس: كان البر قفيزين، فإنما استغنوا هاهنا عن ذكر الدرهم لما في صدورهم من علمه، ولأن الدرهم هو الذي يُسعّر عليه"(١٢).

الاستغناء بمعنى الا بدال: -

والمقصود بالا بدال هنا معناه اللغوى أى: تبديل شيء مكان شيء آخر، أو الاستغناء بشيء عن شيء أى: الاستغناء بذكر شيء بدلاً من ذكر شيء آخر ومن ذلك ما ذكره سيبويه عند قوله: [وصار يا النداء بدلاً من الفعل، ومنه ما ذكره معلقًا على قولهم "أهلك والليل" حيث يقول: أى: بادر أهلك قبل الليل، فقد كثر هذا الحذف استغناءً بما يرون من الحال وبما جرى من الذي وصار المفعول بدلاً من اللفظ بالفعل، ومما جعل بدلاً من اللفظ بالفعل قولهم الحذر الحذر، النجاءَ النجاء" أى الزم الحذر عليك النجاء "(١٣).

فقد وردت لفظة الاستغناء في هذه المواضع عند سيبويه وهو يشير بها إلى معنى إحلال لفظة محل لفظة أخرى، لأن اللفظة المذكورة أوقع في الدلالة على المعنى من اللفظة المتروكة، أو لأنها أقوى إيقاعًا، وأكثر تمكنًا في سياقها.

وسوف نلاحظ أنّ هذه الدراسة قد درست مواضع عديدة للاستغناء بمعنى إحلال لفظة محل لفظة أخرى كما سيجيء في المبحث الثالث بإذن الله.

الاستغناء بمعنى الترك أو الإهمال أو الحذف:

قال سيبويه تعليقًا على قول ابن عبيد الأشجعى:

وَعَـــدتَ وكـــان الخلـــف منـــك ســـجيةً

مواعيــــد عرقــــوب أخــــاه بيثـــــرب

" كأنه قال: واعدتنى مواعيد عرقوب أخاه " ولكنه ترك واعدتنى " استغناء بما هو فيه من ذكر الخلف، اكتفاءً بعلم من يعنى بما كان بينهما قبل ذلك "[١٤].

وقد أشار الفراء إلى هذا المعنى أيضًا وذلك عندما يقول تعليقًا على قوله سبحانه: "والليل إذا يسر " سورة الفجر ٤، ذكروا أنها ليلة المزدلفة، وقد قرأ القراء " ويسرى " بإثبات الياء، وقرأ آخرون يسر "بحذفها، وحذفها أحب إلى لمشاكلتها رؤوس الآيات؛ ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها، أنشدني بعضهم:

كفَّـــاك كــــفٌّ مـــا تُليـــقُ درهمًـــا

جـــودًا وأخـــرى تُعـــطِ بالـــسيف الـــدَّما

وأنشدني آخر:

ليـــسى تخفـــي يـــسارتى قـــدر يـــوم

ولقـــد تُخـــفِ شـــيمتى إعـــساري[١٥]

وقال الفراء في قوله سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى ٣):

نزلت في احتباس الوحى عن النبي ﷺ خمس عشرة ليلة، فقال المشركون قد ودع محمدًا ربُّه أو قلاه التابعُ الذي يكون معه، فأنزل الله جل وعز، ما ودعك ربك يا محمد وما قلى: يريد وما قلاك " فألقيت الكاف،كما يقول قد أعطيتك وأحسنت ومعناه، أحسنت إليك، فتكفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى، ولأن رؤوس الآيات بالياء يقصد بالألف – فاجتمع ذلك فيه "!!.

وزاد الفراء على ذلك فتحدث عن أثر كثرة الاستعمال على الصيغة حيث تؤدى كثرة الاستعمال إلى حذف حرف أو حرفين من الكلمة وهذا الاستغناء أو ذاك الحذف قد جرى على ألسنتهم في هذه الكلمة أو تلك حتى أصبح معروفاً به

على ألسنتهم.

قال الفراء تعليقاً على قوله سبحانه ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى:٥).

هى في قراءة عبد الله: " ولسيعطيك " ربك فترضى والمعنى واحد، إلا أن سوف كثرت في الكلام وعرف موضعها، فترك منها الفاء والواو، والحرف إذا كثر فربما فعل به ذلك،كما قيل: أيش تقول ؟وكما قيل: قم لا باك. وقم لا بشانئك، يريدون لا أبا لك، ولا أبا لشانئك وقد سمعت بيتًا حذفت الفاء فيه من كيف " قال الشاعر:

مــــنْ طَــــالبينَ لبُعْـــرَان لَنَـــا رَفَــضَتْ

كَـــيْلاً يُحَــسُونَ مـــنْ بُعْرَاننَـــا أثَــرًا

أراد: كيف لا يحسون؟ فهذا لذلك؟!

ثم قال الفراء وقوله: فأغنى و"فآوى" أراد الله سبحانه: "فأغناك"، و"فآواك" فجرى على طرح الكاف لمشاكلة رؤوس الآيات ولأن المعنى معروف.(١٦)

وفي قوله سبحانه ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (التكوير:٢٦)

قال الفراء: العرب تقول:إلى أين تذهب – وأين تذهب؟ ويقولون: ذهبت الشامَ: وذهبت السوق،وانطلقت الشام، وانطلقت السوق، وخرجت الشام، وقد سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة – خرجت – وانطلقت، وذهبت " وقال الكسائي: سمعت العرب تقول: انْطُلِقَ به الْفَوْر، فتنصب على معنى إلقاء الصفة وأنشدنى بعض بنى عقيل:

تــــصيحُ بنـــا حنيفـــة إذ رأتنـــا

وأى الأرض تــــــذهبُ للـــــصِّياح

يريد: إلى أى الأرض تذهب، واستجازوا في هذه الأحرف إلقاء "إلى " لكثرة استعمالهم إياها "(١٧) إذن فقد ظهر أننى أقصد بالاستغناء العدول إلى الذكر أو الحذف، فالاستغناء هنا يعد نوعًا من أنواع العدول أو شكلاً من أشكاله.

وقد أشار ابن السراج إلى ذلك فقال: الاسم الذي يرتفع بأنه فاعل هو والفعل جملة إن يستغني عنها بالسكوت عليها لأن الفائدة قد تمت للمخاطب"[١٨].

وقد أشار ابن يعيش إلى ذلك عندما قال:

" الفاعل كالجزء من الفعل، وإنما كان كذلك لأن الفعل لا يستغني عنه، وقد يستغني عن المفعول[١٩].

ومن ذلك قول ابن يعيش: وقد يكون الراجع معلومًا فيستغني عن ذكره، وذلك في مثل قولهم: البرُّ الكر بستين، والسمن منوان بدرهم "[٢٠].

وبناء على هذا أيضا فإن ظاهرة الاستغناء بدلالتها العديدة، قد دخلت معظم أبواب النحو أو كلها بصفة عامة.

وبناء عليه فإن النحاة قد أقروا بوجود ظاهرة الاستغناء وتكرر ذكرهم لها في مؤلفاتهم، بداية من كتاب سيبويه ومعاني الفراء ومعاني الأخفش والأصول لابن السراج ومرورا بشرح المفصل لابن يعيش ونهاية بكتاب النحو الوافي للأستاذ عباس حسن.

وقد رأينا أن الاستغناء عندهم له صور ومعان عديدة منها الحذف ومنها الترك ومنها الا بدال.

ومن شروط الاستغناء أن يؤدى وظيفة دلالية بجوار وظائفه اللفظية، فيصبح الكلام بعد حدوث العدول الاستغنائى خيرًا من حاله قبل حدوث هذا الاستغناء فصاحة وبلاغة وجمالاً وموسيقى، ومن هذا المنطلق تتفاضل أنواع الكلام ومستوياته، كما سنرى في المبحث الأخير عند الحديث عن مواضع الاستغناء في فواصل القرآن الكريم.

ومع أن لغة الشعر لها خصائصها، ولغة القرآن لها خصائصها، إلا أن الاستغناء قد ورد في لغة الشعر في مواضع وأبيات وقصائد أكثر من أن تحصى، وقد نقلنا عن سيبويه بعضا من هذه المواضع فيما مضى. وسنرى أن

ظاهرة الاستغناء موجودة في النص القرآني، ولهذا فقد وجدنا كل علماء البلاغة والصناعة والبيان يفضلون بحق لغة القرآن، ويفضلون نظمها، عند حدوث استغناء في تراكيبها لكنهم– كما سلف – مختلفون في توصيف ما حدث فيها هل يسمى عدولاً استغنائيا أو يسمى حذفًا، أو يسمى تركا أو يسمى استغناء أو يسمى إبدالاً أو يسمى تضميناً أو يسمى غير ذلك.

وهم أيضًا مختلفون في سبب هذا الاستغناء أو هذا الا بدال أو الحذف فبعضهم –كما قلنا– يرى أنه حدث خدمة للمعانى لأن القوافي – كما يقول الرمانى – خادمة للمعانى وليست المعانى تابعة لها [٢١]، وبعضهم يرى أن الاستغناء حدث في النص القرآني خدمة للمعاني وخدمة لإيقاع النص القرآني في الفواصل وفي غير الفواصل – رؤوس الآيات – لأن الفواصل تابعة لمعانى الآيات وليست معانى الآيات تابعة للفواصل.

لكن الحقيقة التي مضى ذكرها وسار عليها البحث من أوله إلى آخره وارتضاها في كل صفحاته، أن الفواصل خدمت المعانى وجاءت تابعة لها أحيانًا، وأن المعانى والألفاظ خدمت الفواصل وهيّأت لها أحيانًا أخرى، بناء على السياق [٢٢] الذي وردت فيه هذه أو تلك.

وتعد قضية علاقة الاستغناء بالفواصل محورا أساسيا في هذا البحث لذلك ناقشت في المبحث الثاني بعض الآراء التي ترفض القول بالاستغناء في النص القرآني وترفض أن تكون هناك أي علاقة بين ورود الاستغناء في النص القرآني وفواصل الآيات القرآنية، كما ترفض القول بأن الاستغناء في النص القرآني يشبه الاستغناء الوارد في أشعار العرب وترى أنه من الواجب علينا أن نبحث عن سر ورود الاستغناء إن جاز تسميته بذلك الاسم، وكان على رأس من قال بهذه الآراء الأستاذة الدكتورة بنت الشاطئ – رحمة الله عليها – وقبل أن نستعرض آراء بنت الشاطئ، سوف نستعرض آراء بعض العلماء من مفسري القرآن الكريم الذين قالوا بورود الاستغناء في النص القرآني وكرروا ذلك في

مؤلفاتهم، بداية من كتب معاني القرآن وإعرابه وتفسيره.

ثم نتبع ذلك بذكر بعض من أقوال عالم كبير مشهود له بالثقة والسبق في مجالات تخصصه، هو الأستاذ سيد قطب رحمه الله، لنجعل من بعض كلامه ردودًا قاطعة على كل رأى يقول بعدم وجود أى علاقة إيقاعية بين فواصل الآيات القرآنية وظاهرة الاستغناء، أو بين ظاهرة الاستغناء والنسيج الداخلي للآيات القرآنية.

المبحث الأول

الاستغناء في كتب اللغة والنحو

المبحث الثاني

الاستغناء عند المفسرين

أولاً: الاستغناء في كتب معانى القرآن وإعرابه وتفسيره

ورد مصطلح استغناء ومشتقاته في كتب التفسير ومعانى القرآن وإعرابه مرات عديدة، حيث استخدمها المفسرون لكتاب الله في مواضع متعددة وسياقات عديدة، واستطاعوا من خلال استخدام هذا المصطلح أن يفسروا العديد من الآيات القرآنية التفسير الأشبه بمراد الله في كتابه.

ولم نعثر في كتابات جل هؤلاء المفسرين على من يقول بعدم وجود الاستغناء في تراكيب آيات القرآن الكريم وفي فواصله، حيث تكرر كر الاستغناء عندهم كثيرا، ورغبة في سوق الكلام مشفوعا بالدليل سوف أذكر مجموعة من النصوص تجلت فيها قدرة المفسرين على استخدام الاستغناء على أساس أنه أداة تساعدهم على جعل النص القرآني نصا متماسكا أمام أعينهم وهو كذلك متماسك من لدن حكيم عليم.

وجاء في التبيان للعكبرى حول قوله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ "البقرة ١٩٧: " قوله تعالى الحج مبتدأ و أشهر الخبر والتقدير حج أشهر وقيل جعل الأشهر الحج على السعة ويجوز أن يكون التقدير أشهر الحج أشهر وعلى كلا الوجهين لا بد من حذف مضاف "فمن فرض" من مبتدأ ويجوز أن تكون شرطا بمعنى الذي والخبر "فلا رفث" وما بعده والعائد محذوف تقديره "فلا رفث منه" ويقرأ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال بالفتح فيهن على أن الجميع اسم لا الأولى و لا مكررة للتوكيد في المعنى والخبر في الحج، ويجوز أن تكون لا المكررة مستأنفة فيكون في الحج خبر ولا جدال وخبر لا الأولى والثانية محذوف أى فلا رفث في الحج ولا فسوق في الحج، واستغنى عن ذلك بخبر الأخيرة ونظير ذلك قولهم زيد وعمر وبشر قائم فقائم خبر بشر وخبر الأولين محذوف وهذا في الظرف أحسن وتقرأ بالرفع فيهن على أن تكون لا غير عاملة، ويكون ما بعدها مبتدأ وخبرا ويجوز أن تكون لا عاملة عمل ليس فيكون

في الحج في موضع نصب وقرئ برفع الأولين وتنوينهما وفتح الأخيــر وإنمــا فرق بينهما لأن معنى "فلا رفث ولا فسوق" لا ترفثوا ولا تفــسقوا ومعنـــى ولا جدال أى لا شك في فرض الحج وقيل لا جدال أى لا تجادلوا وأنتم محرمـــون والفتح في الجميع أقوى لما فيه من نفي العموم "(٢٣).

وهذا لا يختلف كثيرا عما قرره سيبويه من قبل فيمــا نقلنــا عنـــه فـــي المواضع الماضية التي تجعل الاستغناء بمعنى الترك أو الحذف لدلالة المــذكور على المحذوف، لكن الجديد هنا هو قدرة العكبـــري وعبقريتـــه فـــي اســـتثمار الاستغناء في خدمة المعاني التي يحتملها النص القرآني، ويترتب على القول به أحكام تخص الحاج في أثناء أدائه لهذه الفريضة، كما وضح العكبري ذلك.

وفي موضع آخر من التبيان يقول: " قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ سورة المائدة (٩)، وعد يتعدى إلى مفعولين يجوز الاقتصار على أحدهما والمفعول الأول هنا "الذين آمنوا" والثانى محذوف، استغنى عنه بالجملة التي هي قوله: "لهم مغفرة" ولا موضع لها مـــن الإعراب لأن وعد لا يعلق عن العمل كما تعلق ظننت وأخواتها"(٢٤).

وقال السيوطي: " وأما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّــا الَّــذِينَ اسْــوَدَّتْ وُجُــوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ﴾ سورة آل عمران ١٠٦، فعلى تقدير القول أى فيقال: لهم أكفرتم فحذف القول استغناء عنه بالمقول فتبعته الفاء في الحذف وكذا قوله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٣١) " (الجاثية)، وأما التفصيل فهو غالب أحوالها... وكقوله ﴿أَمَّا الــسَّفِينَةُ فَكَانَــتْ لِمَــسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَــصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْــرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَــانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِــكَ

تأويلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢) (الكهف)

وقد يترك تكرارها استغناء بأحد القسمين عن الآخر " (٢٥).

وقال أيضا عند كلامه عن الاستغناء بالإفراد عن التثنية في قوله تعالى: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) " (طه)، فأفرد المخاطب في الفعل تشقى بعد أن ثناه في الفعل يخرجنكما، وهذا كثير في كلامهم. وقال أيضا: " الحادى والعشرون الاستغناء به عن الجمع نحو ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤) (الفرقان) ولم يقل أئمة كما قال ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ (الأنبياء ٧٣) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (٥٤) (الواقعة)، أى أنهار، الثانى والعشرون الاستغناء بالتثنية عن الإفراد نحو ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (٤٦) (الرحمن) قال الفراء أراد جنة كقوله ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤١) (النازعات) فثنى لأجل الفاصلة قال والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام ونظير ذلك قول الفراء في قوله تعالى ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (١٢) (الشمس) فإنهما رجلان قدار وآخر معه ولم يقل أشقياها للفاصلة وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه وقال إنما يجوز في رءوس الآى زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همز أو حرف فأما أن يكون الله وعد بجنتين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رءوس الآى معاذ الله وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين قال ذواتا أفنان ثم قال فيهما وأما ابن الصائغ فإنه نقل عن الفراء أنه أراد جنات فأطلق الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة ثم قال وهذا غير بعيد قال وإنما عاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة للفظ وهذا هو الثالث والعشرون الرابع والعشرون الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحو لا بيع فيه ولا خلال، وقد قال في موضع آخر ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ ٢٥٤ البقرة (٢٦).

ومما سبق نلاحظ أن بعض المفسرين يرى أن الاستغناء تم مراعاة لفواصل الآيات القرآنية أي مراعاة للإيقاع الموسيقي الفريد الخاص بالقرآن الكريم حفاظا على تفرد هذا النص المعجز بهذا الإيقاع المعجز، ولكنهم لا

يمنعون من القول بأن الاستغناء حدث خدمة لبعض المعاني الخفية التي تحتـاج منا إلى تأمل علاقة هذه الآية أو تلك بالنص كله أو بما قبلها أو بغير ذلك.

هذا ولا يحتاج الأمر مني إلى القول بأن هؤلاء المفسرين قد أثبتوا وجود ظاهرة الاستغناء في النص القرآني، ولم ينفوا وجودها.

إننا سنلاحظ في النص الآتي أن السيوطي يحـاول الـربط بـين ورود الاستغناء وبين دلالة السياق ليكون للاستغناء أثر في تحدي المعنى تحديدا دقيقا لا يفهم النص إلا من خلال القول بالاستغناء فيه، قال السيوطي في الوقـف: " والثالث التفصيل فإن صرح بالخبر جاز لاستقلال الجملة واستغنائها عما قبلهـا وإن لم يصرح به فلا؛ لافتقارها قاله ابن الحاجب في أماليه: الوقف على الجملة الندائية جائز كما نقله ابن الحاجب عن المحققين لأنها مستقلة وما بعدها جملـة أخرى وإن كانت الأولى تتعلق به وكل ما في القرآن من القول لا يجوز الوقف عليه لأن ما بعده حكايته قاله الجويني في تفسيره " (٢٧).

وقال في حذف فعل القول: " وأما قوله تعـالى ﴿فَأَمَّـا الَّـذِينَ اسْـوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ﴾ سورة آل عمران ١٠٦، فعلى تقدير القـول أى فيقـال لهـم أكفرتم فحذف القول استغناء عنه بالمقول فتبعته الفاء في الحذف وكـذا قولـه " ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، وأما التفـصيل فهـو غالـب أحوالها كما تقدم وكقوله أما السفينة فكانت لمساكين وأما الغلام وأما الجدار وقد يترك تكرارها استغناء بأحد القسمين عن الآخر"(٢٨). كما مضى فـي أنـواع الحذف.

وقال عن تعريف لفظة أحد وتنكيرها في قوله تعالى: " قل هو الله أحد الله الصمد ": وحاصله أن في ذلك أجوبة أحدها أنه نكر للتعظيم والإشارة إلـى أن مدلوله وهو الذات المقدسة غير ممكن تعريفها والإحاطة بها الثاني أنه لا يجوز إدخال أل عليه كغير وكل وبعض وهو فاسد فقد قرئ شاذا قل هو الله الأحد الله الصمد حكى هذه القراءة أبو حاتم في كتاب الزينة عن جعفر بن محمد الثالـث

وهو مما خطر لي أن هو مبتدأ والله خبر وكلاهما معرفة فاقتضى الحصر فعرف الجزآن في الله الصمد لإفادة الحصر ليطابق الجملة الأولى واستغنى عن تعريف أحد فيها لإفادة الحصر دونه فأتى به على أصله من التنكير على أنه خبر ثان وإن جعل الاسم الكريم مبتدأ وأحد خبره ففيه من ضمير الشأن ما فيه من التفخيم والتعظيم فأتى بالجملة الثانية على نحو الأولى بتعريف الجزأين للحصر تفخيما وتعظيما "[٢٩].

" وذكر ابن الأثير وصاحب عروس الأفراح وغيرهما أن من أنواع إيجاز القصر باب الحصر سواء كان بإلا أو بإنما أو غيرهما من أدواته لأن الجملة فيها نابت مناب جملتين وباب العطف لأن حرفه وضع للإغناء عن إعادة العامل وباب النائب عن الفاعل لأنه دل على الفاعل بإعطائه حكمه وعلى المفعول بوضعه وباب الضمير لأنه وضع للاستغناء به عن الظاهر اختصارا ولذا لا يعدل إلى المنفصل مع إمكان المتصل وباب علمت أنك قائم لأنه متحمل لاسم واحد سد مسد المفعولين من غير حذف " [٣٠].

قال الزركشى في العلاقة بين تفسير المعنى وتفسير الإعراب: " قد يقع في كلامهم هذا تفسير معنى وهذا تفسير إعراب والفرق بينها أن تفسير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية وتفسير المعنى لا يضر مخالفة ذلك وقد قال سيبويه في قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ البقرة ١٧١، تقديره مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به واختلف الشارحون في فهم كلام سيبويه فقيل هو تفسير معنى وقيل تفسير إعراب فيكون في الكلام حذفان حذف من الأول وهو حذف داعيهم وقد أثبت نظيره في الثانى وحذف من الثانى وهو حذف المنعوق وقد أثبت نظيره في الأول فعلى هذا يجوز مثل ذلك في الكلام والثانى تجنب الأعاريب المحمولة على اللغات الشاذة فإن القرآن نزل بالأفصح من لغة قريش " [٣١].

وقال في موضع آخر [٣٢]: " الخامس عشر خطاب الواحد والجمع بلفظ الاثنين كقوله تعالى ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ والمراد مالك خازن النار وقال الفراء الخطاب لخزنة النار والزبانية وأصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون من ثلاثة نفر فجرى كلام الواحد على صاحبيه ويجوز أن يكون الخطاب للملكين الموكلين من قوله ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ق ٢١.

" وقال أبو عثمان لما ثنى الضمير استغنى عن أن يقول ألق ألق يشير إلى إرادة التأكيد اللفظى وجعل المهدوى منه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ قال الخطاب لموسى وحده لأنه الداعى وقيل لهما وكان هارون قد أمن على دعائه والمؤمن احد الداعيين" [٣٣].

قال الزركشى: " وكذلك قوله ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ الصافات، إلى قوله كذلك نجزى المحسنين بغير إنا وفي غيره من مواضع ذكر إنا كذلك لأنه يبنى على ما سبقه في هذه القصة من قوله إنا كذلك فكأنه طرح فيما اكتفي بذكره أولا عن ذكره ثانيا ولأن التأكيد بالنسبة فاعتبر اللفظ من حيث هو دون توكيده ويحتمل أن يكون من باب الاكتفاء[٣٤] وهذا أسلوب غريب وقل في القرآن وجوده وأكثر ما يكون عند تقدم مقتضيات الألفاظ كالمبتدأ وحروف الشرطين الواقعين في الماضى والمضارع، ويستغني عنه عند أمر محذور التناسى وقد يرد منه شيء يكون بناؤه بطريق الإجمال والتفصيل بأن تتقدم التفاصيل والجزئيات في القرآن فإذا خشى عليها التناسى لطول العهد بها بنى على ما سبق بها بالذكر الجملى كقوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ

بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)﴾ فقوله فبظلم بيان لذكر الجملى على ما سبق في القول من التفصيل وذلك أن الظلم جملى على ما سبق من التفاصيل من النقض والكفر وقتل الأنبياء وقولهم قلوبنا غلف، والقول على مريم بالبهتان ودعوى قتل المسيح عليه السلام إلى ما تخلل ذلك من أسلوب الاعتراض بها موضعين وهما قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ إلى قوله شهيدا وأنه لما ذكر بالبناء جملى الظلم من قوله فبظلم لأنه يعم على كل ما تقدم وينطوى عليه ذكر حينئذ متعلق الجملى من قوله فبما نقضهم ميثاقهم عقب الباء لأن العامل في الأصل حقه أن يلي معموله فقال فبظلم من الذين هادوا حرمنا هو متعلق بقوله فبظلم " [٣٥].

وقال عن أسباب الاستغناء أو الحذف [٣٦]: فمنها مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر نحو الهلال والله أي هذا فحذف المبتدأ

استغناء عنه بقرينة شهادة الحال إذ لو ذكره مع ذلك لكان عبثا من القول ".

وجاء في مشكل إعراب القرآن: " قوله إن أنتم ضربتم إلى قوله الموت اعتراض بين الموصوف وصفته فاستغنى عن جواب إذا التي هي الشرط بما تقدم من الكلام لأن معنى اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم معنى الأمر بذلك ولفظه لفظ الخبر واستغنى عن جواب إذا أيضا بما تقدم من الكلام وهو قوله شهادة بينكم لأن معناه ينبغي أن تشهدوا إذا حضر أحدكم الموت " (٣٧).

وجاء في التبيان في إعراب القرآن عند قوله تعالى يعدكم: " وهو يتعدى إلى مفعولين وقد يجيء بالباء يقال وعدته بكذا، مغفرة منه يجوز أن يكون صفة وأن يكون مفعولا متعلقا بـ يعد أى يعدكم من تلقاء نفسه وفضلا تقديره منه، استغنى بالأولى عن إعادتها " (٣٨).

وجاء في تفسير البيضاوى: " قوله أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" والدعاء في الآية بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين في أيا عوض عن المضاف إليه و ما صلة لتأكيد ما في أيا من الإبهام والضمير في فله للمسمى لأن التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه " (٣٩).

وقال في موضع آخر: " ومكر السيئ أصله وإن مكروا المكر السيئ فحذف الموصوف استغناء بوصفه "(٤٠).

وقال في موضع آخر: " فبما كسبت أيديكم " فبسبب معاصيكم مع ذكر الفاء لأن ما شرطية أو متضمنة معناه ولم يذكرها نافع وابن عامر استغناء بما في الباء من معنى السببية "(٤١).

قال القرطبى: " قوله تعالى ﴿إنكم ظلمتم أنفسكم﴾ استغنى بالجمع القليل عن الكثير والكثير نفوس وقد يوضع الجمع والكثير موضع جمع القلة والقل ل

موضع الكثرة، الثامنة عشرة قوله تعالى إذا سلمتم يعني الآباء أي سلمتم الأجرة إلى المرضعة الظئر قاله سفيان مجاهد سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع وقرأ الستة من السبعة وما آتيتم بمعنى ما أعطيتم وقرأ ابن كثير أتيتم بمعنى ما جئتم وفعلتم كما قال زهير وما كان من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل قال قتادة والزهري المعنى سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي وكان على اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر وعلى هذا الاحتمال فيدخل في خطاب سلمتم الرجال والنساء وعلى القولين المتقدمين الخطاب للرجال قال أبو على المعنى إذا سلمتم ما آتيتم نقده أو إعطاءه فحذف المضاف وأقيم الضمير مقامه فكان التقدير ما آتيتموه ثم حذف الضمير من الصلة وعلى هذا التأويل ما مصدرية أي إذا سلمتم الإتيان والمعنى كالأول لكن يستغني عن الصفة من حذف المضاف ثم حذف الضمير " (٤٢).

وقال في موضع آخر: " فإياي فاعبدون " إياي منصوب بفعل مضمر أي فاعبدوا إياي فاعبدون فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني والفاء في قوله " فإياي" بمعنى الشرط " (٤٣).

قال أبو السعود: " أن تسترضعوا أولادكم " بحذف المفعول الأول استغناء عنه أي أن تسترضعوا المراضع لأولادكم يقال أرضعت المرأة الصبي واسترضعتها إياه وقيل إنما يتعدى إلى الثاني بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبي أي أن تسترضعوا المراضع لأولادكم فحذف حرف الجر أيضا كما في قوله تعالى وإذا كالوهم أي كالوا لهم " (٤٤).

وقال في موضع آخر: ثم أحياهم عطف إما على مقدر يستدعيه المقام أي

فماتوا ثم أحياهم وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته.

وجاء في فتح القدير ج: ١ ص: ٧٨

وقيل إن المراد الصبر والصلاة ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قول الشاعر

ومن يك أمسى بالمدينة رحله

فإني وقيار بها لغريب

وقال في موضع آخر من فتح القدير ج: ١ ص: ٢٩٠

وقوله: " فإن الله يعلمه " فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول والوعيد لمن جاء بعكس ذلك ووحد الضمير مع كون مرجعه شيئين هما النفقة والنذر لأن التقدير وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر قاله النحاس وقيل إن ما كان العطف فيه بكلمة أو كنا في قولك زيد أو عمرو فإنه يقال أكرمته ولا يقال أكرمتهما والأولى أن يقال إن العطف بـ أو يجوز فيه الأمران توحيد الضمير كما في هذه الآية وفي قوله تعالى وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وقوله ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا وتثنيته كما في قوله تعالى إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ومن الأول في العطف بالواو قول امرئ القيس

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجته من جنوب وشمأل

ومنه قول الشاعر

نَحْـــنُ بمَـــا عنْـــدنَا وَأَنْــتَ بمَــا

عنْــــدكَ رَاض وَالــــرأيُ مُخْتَلــــفُ

ومنه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ التوبة ٣٤.

هذه نماذج من أقوال علماء معاني القرآن وإعرابه وتفسيره، وقد لاحظنا أنهم جميعا يوافقون على أن الاستغناء موجود فـي دراسـة الـنص القرآنـي، وملحوظ في معرفة أسرار تراكيبه ومعانيه، ولم نعثر على نماذج ذات بال مـن أقوال القدامى ترفض أن يكون في القرآن استغناء عن حرف أو عن كلمة فعلا أو اسما أو عن جملة، غير أننا سوف نلاحظ بعضا قليلا من علمـاء التفـسير يرفضون القول بالاستغناء في بعض آيات القرآن الكريم وبخاصة إذا كان هـذا الاستغناء من أجل رءوس الآيات أو الفواصل.

قد لاحظنا أن عددا ليس قليلا من علمائنا القدامى قـد جعلـوا مراعـاة الفاصلة سببا من الأسباب التي يحدث من أجلها الاستغناء عن حركـة أو عـن حرف أو عن كلمة أو عن جملة.

وقد كانت المقتطفات السابقة دليلا على استخدام الاستغناء في كتب معاني القرآن وكتب إعرابه وتفسيره مما يندرج تحت مؤلفات علوم القرآن، وسـوف نتناول في الصفحات القادمة نموذجين مفصلين نبرز من خلالهمـا أدلـة مـن يرفضون أن يكون الاستغناء من اجل الفاصلة قد حدث في القرآن الكريم.

ونبرز أيضا أدلة قوية تثبت أن الاستغناء قد حدث في القـرآن الكـريم، وكان من أسبابه المتعددة مراعاة الفاصلة إلى جانب أسباب أخرى، وقـد وقـع الاختيار على قطبين من أقطاب التفسير في العصر الحديث، هما العالم الكبيـر الشيخ سيد قطب، والدكتورة بنت الشاطئ – رحمة الله عليهما –.

موقف بنت الشاطئ والشيخ سيد قطب – رحمهما الله –:

أولا: بنت الشاطئ:

فقد تحدثت بنت الشاطئ عن الاستغناء في أول مبحث " الأساليب وسر التعبير" من كتابها التفسير البياني للقرآن الكريم، وجاء حديثها تحت عنوان:

الاستغناء عن الفاعل:

قالت رحمها الله: من الظواهر الأسلوبية اللافته في البيان القرآني ظاهرة الاستغناء عن الفاعل التي توزعت في دراستنا وكتبنا بين أبواب شتى متباعدة لا تعطى سر هذا الاستغناء.

فأنت تقرأ في علم الصرف كيفية بناء الفعل للمجهول وصيغ المطاوعة، وتقرأ في علم النحو أحكام نائب الفاعل، أما لماذا حذف الفاعل وبنى فعله للمجهول فذلك موضوع آخر ندرسه في علم آخر هو علم المعانى التي انفصلت عن الإعراب فعاد هذا الإعراب صنعة وهو في الأصل مناط المعنى [٤٥].

ثم قالت: ودون أن يحاول أحد الدارسين – فيما أعلم – أن يجمع هذا الشتات المنتثر لظاهرة أسلوبية واحدة –ظاهرة الاستغناء وبخاصة الاستغناء عن الفاعل في رأيها – وذلك لاستجلاء سرها الذي من أجله تستغني العربية عن الفاعل فتسنده إلى غير فاعله، بالبناء للمجهول أو المطاوعة أو الإسناد المجازى [٤٦].

وقد رأت بنت الشاطئ رحمها الله أن ظاهرة الاستغناء عن الفاعل في القرآن الكريم مطردة في مواضع النفخ والقيامة، وفي موقف الآخرة مطاوعة أو مجازًا.

وقد رأت أن النحاة قد تسرعوا في القول بأن أسباب حذف الفاعل هي العلم به أو الجهل به أو الخوف منه أو عليه، حيث ورد حذف الفاعل في مواضع ليس منها العلم به يقينًا أو الخوف منه أو الجهل به أو غير ذلك.

وخلصت إلى أن من أسباب حذف الفاعل أو الاستغناء عن الفاعل في أحـداث يوم القيامة في كل الأفعال التي بنيت للمجهول أو حدث فيها إسناد مجـازى أو مطاوعة فاستغنى فيها عن الفاعل، بسبب التركيز على حث عظيم لا بمحدث هذا الحدث، إنه هول القيامة وهو هول يبلغ من فزعه أن ينسى الناس التفكير فـي محدثه أما أفعال المطاوعة فيلفت النظر في حذف الفاعل أنها تفيد التسخير لأن الحدث كأنه يحدث تلقائيًا على وجه التسخير،وكذلك الإسناد المجـازى يعطـى المسند إليه فاعلية محققة يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلى(٤٧).

والحق أن بنت الشاطئ – رحمها الله – معروفة بغيرتها على القـرآن، ومعروفة بعلم غزير، ودراية واعية للأسرار التي احتوى عليها القرآن الكـريم وقد بذلت جهودًا مشكورة في بحوث رصينة في هذا المجال.

بيد أن قضية الاستغناء، وظاهرة الاستغناء ليست ظاهرة جديـدة علـى التراث النحوى أو على تراثنا القديم بكل ما فيه من دراسات عربية أو قرآنية أو ما يتصل بهذا أو بذاك.

إنّ علماءنا الأقدمين قد التفتوا إلى ظاهرة الاستغناء في الأسلوب العربى بصفة عامة وفي القرآن الكريم بصفة خاصة، سواء كان هذا الاستغناء في أول الآيات القرآنية أو في وسطها أو في نهايتها وسواء كانت ظاهرة الاستغناء فـي باب نحوى واحد أم في كل الأبواب النحوية أم في معظمها.

ولقد انتبه علماؤنا القدامى لهذه الظـاهرة سـواء مـنهم مـن انـشغل بالدراسات اللغوية والنحوية أم مَنْ انشغل بالدراسات القرآنية تفـسيرًا للقـرآن الكريم أم بيانًا لمعانية أم إعرابا لقراءاته أم إعرابًا لآياته أم غير ذلك.

فقد نص سيبوية على ظاهرة الاستغناء في مؤلفه الكبير وأشار الفـراء إلى ظاهرة الاستغناء في الدراسات القرآنية في كتابه معـانى القـرآن مـرات عديدة، لكنه كان يشير إليها "بالاكتفاء" أو "الحذف"، أو "الترك لكثرة الاسـتعمال أو "الطرح" أو "الإلقاء" كما مضى بيانه.

وأشار إليها ابن جنى في كتابه الخصائص أكثر من مرة وأشـــار إليهـــا غيرهم من النحاة واللغويين والمفسرين والبلاغيين كما مضى بيانه.

فإذا عدنا إلى الآيات التي رأت بنـت الـشاطئ رحمهـا الله أن سـبب الاستغناء عن الفاعل فيها هو تعلقها بأمر الآخرة، وهول يوم القيامة، وجدنا أن الاستغناء عن الفاعل كان وراءه سببان وليس سببًا واحدًا والسببان هما:

١- الأول هو مراعاة فواصل الآيات التي وردت فيها ألفاظ تحتاج الفواصـل إلى تعديلها وهى قليل في الآيات المستشهد به عند بنت الـشاطئ وهـي كثير في الموضوع نفسه عند غيرها.

٢- والثانى هو السياق الذي وردت فيه كل آية.

وقد استخلصت بنت الشاطئ من جميع السياقات التي ورد فيها الاستغناء عن الفاعل في القرآن الكريم ملحظًا عامًا هو أن السر وراء ذلـك الاسـتغناء وإسناد الفاعل إلى غير فاعله مطاوعة أو مجازًا أو ببناء الفعل للمجهول كـان بسبب التركيز على الحدث العظيم وهو حدث القيامة وما فيها من هول وفزع.

هذا هو السر في الاستغناء عن الفاعل في كل المواضع التي ورد فيهـا حذف الفاعل، وهذا سر واحد من أسرار كثيرة كانت وراء الاستغناء عن الفاعل حقيقة في الآيات التي حددتها مجالاً للاستشهاد على صدق مقولتها.

أما الأمر الأول – عندنا – فهو لا يقل أهمية عما جاءت به بنت الشاطئ وهى في ذلك تقصد إلى عدم القول بما نقول وتنكر على الآخرين رؤيتهم له.

إن الأمر الآخر وراء الاستغناء عن الفاعل في الفواصل بصفة خاصـة هو مراعاة النغم الموسيقى الذي جاءت به كل سورة أو مراعاة الأنغام الموسيقية التي جاءت بها آيات السورة الواحدة إذن فقد يكون الإيقاع وراء الاستغناء عـن الفاعل، إلى جانب نكت أخرى تقوى أثر هذا الإيقاع المتلاحق علـى الأسـماع والقلوب اقرأ معى هذه الآيات بعد حدوث الاستغناء اللفظى للفاعل فيها – كمـا وردت في النص القرآني -:

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ* وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (المرسلات ٨، ٩، ١٠)

وقارن إيقاع هذه الآيات على هذا الاستغناء في الفاصلة وإيقاعها إذا أظهرنا الفاعل معها على النحو الآتى:

- " فإذا طُمستْ النجومُ – أو " طمس الله النجومُ".
- "وإذا فرجت السماء " أو" فرج الله السماء "
- وإذا الجبال نٌسفت " أو " نسف الله الجبال"

لا شك أن أثر الإيقاع سيضمحل وبناء عليه ستضمحل الآثار الدلالية التي أشارت إليها بنت الشاطئ رحمها الله بعد أن اختزلت دلالات عدد كبير من السياقات في دلالة واحدة، وهى التركيز على هول يوم القيامة وهو اختزال أخشى أن يكون مخلاً لأن لكل سياق دلالته التي تتولد من تراكيبه.

واقرأ معى أيضًا الآيات الآتية على الاستغناء الذي جاءت به:

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ *وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ* وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ* وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَى ذَنب قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ* وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ* وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَت* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَت* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾. التكوير

فإذا أحدثنا في هذا النص أى تبديل أو حاولنا إعادة أى عنصر مستغنى عنه لكان ذلك على حساب جمال دلالاته وعلى حساب جمال إيقاعه وجمال موسيقاه الظاهرة في رصفها على هذا الشكل والباطنة وراء هذا الرصف.

فأين هذا الجمال الإيقاعى وأين جمال النغمات المنبعثة من رصف جمل الآيات إذا أعدنا ترتيب عناصر كل جملة داخل الآيات الماضية على النحو الآتى:

" فإذا طُمست النجوم "– أو " فإذا طمس الله النجوم.

وإذا فُرِجَتْ السماء – أو فرج الله السماء... إلخ

وكذلك لو فعلنا ذلك في قوله سبحانه:

"إذا كوّرت الشمسُ، وإذا انكدرت النجوم

أو إذا كوّر الله الشمس وإذا كدّر الله النجوم

وإذا سُيرّت الجبال أو سيرّ الله الجبال

وإذا عُطّلتْ العشار أو عَطّل الله العشار

وإذا حُشِرت الوحوش أو حشر الله الوحوش

وإذا سجرت البحار أو سجر الله البحار...." إلخ

لا شك أن النص سيخلو تمامًا من أى جمال دلالى أو جمال إيقاعى حيث اختلف حرف الروى في كل فاصلة عن الفاصلة المجاورة لها ودلالة الآيات تحتاج إلى فواصل متشابهة في الإيقاع أو في رويها حتى تنسجم دلالاتها مع إيقاعها الصوتى فتحدث في النفوس تأثيرًا يحقق الأهداف من ورودها على هذا النحو من النظم".

إن كثيرًا من البصريين يمنعون ورود الاسم بعد إذا الشرطية، ويتأولون ذلك إنْ ورد على تقدير "فعل" بعد "إذا" لأن "إذا" لا يجيء بعدها الاسم – عندهم –لكننا نرى أن "إذا" يجوز أن يليها الاسم ويجوز أن يليها الفعل وأن أشعار العرب قد امتلأت بهذا وبذاك[٤٨]، وعليه فلا داعى للقول بحتمية مجيء فعل بعد "إذا" الشرطية ومع أن القول بالاستغناء عن الفاعل هنا في مثل هذه التراكيب يحتاج إلى القول بحتمية مجيء الفعل بعد "إذا" الشرطية، إلا أننا لا نسير معه ؛ لأن الاستغناء عن الفاعل تم عن طريق بناء الفعل للمجهول هنا وتم في مواضع أخرى بإسناده إلى غير فاعله مجازًا أو مطاوعة، وكل ذلك كانت الفاصلة القرآنية تطلبه لتحقيق أهداف عديدة منها السياقى ومنها الإيقاعى الموسيقى.

وبرغم أننا نوافق أ.د. بنت الشاطئ رحمها الله في رأيها أو في جزء من رأيها إلا أننا نرى أن آخر آية في الآيات التي بين أيدينا تؤيد ما قلناه من أن الاهتمام بإيقاع الآيات وموسيقاها كان وراء هذا الاستغناء.

وليس ما قالته – رحمها الله – من أن الاستغناء عن الفاعل في مثل هذه

الآيات كان بسبب تركيز هذه الآيات على أمر الآخرة فقط(٤٩).

فآخر آية في النص الذي بين أيدينا لا تتحدث عن هول يوم القيامة، بل هي جواب لكل ما تقدم عليها من آيات إلا أنها جاءت مبنية للمعلوم ولم يستغن فيها عن الفاعل برغم ارتباطها بالآخرة.

علمَتْ: فعل + تاء التأنيث

نفسٌ: فاعل مرفوع

ما: اسم موصول مفعول به

أحْضرَت: فعل + تاء تأنيث + فاعل مستتر جوازًا والجملة صلة ما

أضف إلى ذلك أن هناك آيات قد استغنى فيها عن الفاعل وليست متعلقة بأمر الآخرة ومع هذا جاءت مبنية للمجهول، وفيها قراءات أخرى شاذة ببنائها للفاعل من ذلك قراءة الإمام على بن أبي طالب لقوله سبحانه: **﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾ (الغاشية)**

كل هذه الأفعال – خلقت – رفعت – نصبت – سطحت – وردت قراءة الإمام على بفتح أولها وضم التاء في آخرها على اعتبار أنها تاء فاعل والمفعول محذوف أى: خلقتها – رفعتها – نصبتها(٥٠).

وكذلك آيات سورة الانشقاق، والانفطار إلى جانب ورود الفعل "ترجع" مسندًا إلى الله في قراءة حفص وغيره من السبع أو العشر مثل: "وإلى الله تُرجع الأمور" في كل القرآن ببنائه للمجهول، لكن قراءة يعقوب بن إسحق الحضرمى ببنائه للفاعل في كل القرآن تجعل من الصعوبة مسايرة بنت الشاطئ – رحمها الله – في إطلاق الحكم الذي رأته من أن البناء للمجهول تم بسبب تعلقها بأمر الآخرة.

إن الاستغناء عن الفاعل في مثل هذه المواضع كان وراءه مقاصد كثيرة يأتي هنا في أولها مراعاة فواصل الآيات، لتجئ فواصلها متناغمة مع بعضها ذات إيقاع خاص مؤثر على النفوس غير المشغولة بالآخرة، وعلى النفوس المؤمنة فتزداد إيمانًا. وكل ذلك ينطبق على آيات كثيرة في القرآن الكريم قيل فيها بالاستغناء عن الفاعل بسبب تعلقها بأمر الآخرة، ونقول ليس ذلك فقط، بل إن إيقاع الآيات كان وراء ذلك أيضًا:

من ذلك أيضا:

- الكهف ٩٩:﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾
- المؤمنون ١٠١: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾
- يس ٥١: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾
- الزمر ٦٨:﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾
- ق ٢٠:﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾
- الحاقة ٢٣:﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾
- الأنعام ٧٣: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
- طه ١٠٢: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾

النمل ٨٧: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾

وغيرها من آيات الكتاب العزيز كلها كانت الفاصلة مراعاة غير مهملة في مجئ الآية على هذه الكيفية مع وجود دلالات كامنة يوفق الله في كل زمان ومكان من بدلى حولها بخواطر دلوه فيها فتعدد الخواطر وتتنوع وتتوحد الفواصل خدمة لهذه النص العظيم وخدمة لآياته وخدمة لإيقاعها وجمالها، أما ما ورد من ذلك في غير فاصلة فالسياق هو الحكم في السبب وراء مجيئه كذلك

وسوف نعرض عنصرًا واحدًا من عناصر الجملة الفعلية يرد فيه الاستغناء على صور عديدة، هذا العنصر هو المفعول به؛ لندلل بذلك أيضا على أن الاستغناء يمكن أن يدخل جميع عناصر الجملة الفعلية وجميع عناصر الجملة الاسمية وأدواتهما، بلا استثناء، محققًا بذلك دلالات شتى.

صور الاستغناء عن المفعول:

وقد تعددت الصور والأشكال التي يحذف لها المفعول فقد يحذف في المواضع الآتية:

١- إذا كان عائد اسم موصول في الفواصل وفي غيرها.
٢- إذا كان المراد التهويل والتخويف والاحتكار وفي غيرها.
٣- إذا كان غير مراد ولا محوج إلى ذكره في غيرها.
٤- فيما ظاهره أن الظرف مفعول به في غيرها.
٥- فيما وردت فيه قراءات بالنصب وبغير النصب في قراءات أخري.
٦- إذا كان اسمًا تقدم عليه مثله في الإعراب واللفظ أوفي اللفظ فقط أو ما يسمى بالإظهار والإضمار.
٧- إذا كان ضميرًا تقدم عليه مثله في اللفظ في الفاصلة وفي غيرها.
٨- الحكم بزيادة حرف الجر أو عدم زيادته.

٩- إذا كان للعموم.

١٠- في أسلوب الاحتباك.

١١- إذا كان مفعولا لفعل المشيئة.

١٢- إذا كان عائدًا على اسم شرط.١

١٣- إذا كان عائدًا على المبتدأ.

١٤- إذا كان عائدًا على المفعول

١٥- إذا كان ضمن بإدات الإضافة.

١٦- في التنازع.

قال الزجاج: لو حاول إنسان أن يأتي بجميع ما في التنزيل من حذف المفعول به لتوالت عليه الفتوق، ولم يستطع القيام به لكثرته، فهو كمن يستقى من بئر زمزم فيغلبه.

وذكر ابن جنى أن حذفه كثير، ولا يركبه إلا من قوى طبعه وأن حذفه أقوى دليل على قوة عربية الناطق.

ونص ابن هشام، وتابعه آخرون كثيرون أن حذفه كثر في الفواصل.

وذكر ابن يعيش أن حذفه على ضربين: **أحدهما** أن يحذف وهو مقصود، فيكون سقوطه لضرب من التخفيف وهو في حكم المنطوق به، **والآخر** أن تحذفه معرضًا عنه البتة ؛ لأن الغرض هو الإخبار بوقوع الفعل من الفاعل، فيصير من قبيل الأفعال اللازمة.

كل هذه المواضع قد استغنى فيها عن ذكر المفعول وإذا كانت الأسباب الماضية أسبابًا مقبولة لأنها تظهر السر وراء حذف المفعول في رأى كثير من النحاة والمفسرين والبلاغيين، ولكنّ هناك مواضع أخرى لم يجد النحاة سرًا يفسّر حذف المفعول فيها إلا القول بأن الحذف ثم رعاية للفاصلة "ومن هذه المواضع قوله تعالى: **﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ**

يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾

فقد حذف المفعول "الكاف" من الفعل "قلى" عند الكثيرين بسبب مراعاة الفاصلة، أو بسبب الرغبة في عدم ذكر النبي ﷺ متصلاً ومعمولاً للفعل "قلى" حتى لو كان هذا الفعل منفيًا حدوثه، إلا أن الرغبة في الإبقاء على خصوصية علاقة النبي ﷺ بربه تستلزم في رأى هؤلاء العلماء – عدم اتصال الضمير العائد على محمدﷺ بالفعل "قلى" تنزيها وتشريفًا وعلو مكانة وبرغم أن هذا الرأى له وجاهته، لكنه ليس قويًا إذ إن الآيات قد سارت على شكل معين أُتيح فيها لبعض الأفعال أن يصحبها ضمير المفعولية، ولم تتمكن بعض الأفعال الآخرى من اصطحاب مفعولها معها.

وكانت الفاصلة وراء هذا التنويع في ذكر المفعول مرة وفي عدم ذكره مرة أخرى إلى جانب أسرار أخرى خفية قد يعيننا الله على اكتشافها فنزداد إيمانًا.

ولعل آيات سورة الضحى قد أيدت ما قلناه من أن تتابع إيقاعها، وانسجام موسيقاها كان سببًا قويًا من أسباب الاستغناء عن المفعول في بعض أفعالها أما القول بالرغبة في تنزيه النبي ﷺ من أن يتصل ضمير اسمه بالفعل "قلى" كان السبب في الاستغناء عن ذكر المفعول، فليس سببًا كافيًا، لأن الآيات نفسها قد استغنت بعض أفعالها عن مفعولاتها التي هي ضمير اسمه ﷺ، ولم يكن القصد هو تنزيهه ﷺ لعدم الحاجة إلى ذلك، اقرأ معي الأفعال الآتية: " ألم يجدك يتميًا فآوى"، أى: آواك، فالاستغناء عن المفعول هنا ليس وراءه النفي، بل وراءه الإثبات لأن الله سبحانه قد "آوي" نبيه فعلاً بعد اليتم الذي عاشه بعد موت أبيه وأمه في صغره ﷺ.

والفعل "آوى" أيضًا ليس فاصلة من حيث الصناعة لأنه ليس رأس آية، بل إن تتابع إيقاع الآية بورودها مقسمة على هذا النحو: جمل فعلية متتابعة

بشكل منظم أتاح لبعضها الاتصال بمفعوله، ولبعضها الاستغناء عنه خدمة لموسيقى الآية وإيقاعها الداخلي، وكأنها قُسّمتْ إلى فواصل صغيرة ذات موسيقى جميلة.

وهكذا تجد ذلك في: "ولسوف يعطيك ربك فترضى " فقال فترضى، ولم يقل فترضى به أو بعطية ربك".

ثم جاءت الفاصلة الكبرى: "**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى** (٨) ولم يقل فأغناك" وبمقارنة شكل الآية بعد الاستغناء وقبله تلحظ الفرق واضحًا بين موسيقى الآية بذكر المفعول وموسيقاها بالاستغناء عن المفعول.

ولا نريد أن نؤكد كلامنا بما قاله النحاة من أن حذف المفعول في مثل هذه المواضع هو عادة العرب في كلامها، وهو سبب رئيس يمكن الاستئناس به في أول الكلام وفي آخره؛ لأن القرآن الكريم نص لغوى يجب تفسير ظواهره اللغوية بما جرت عليه عادة العرب في لغتهم.

وقد قَدَّمت فيما مضى أن العرب كانت تحذف الضمير المفعول إذا تقدم عليه مثله كما في مثل قوله سبحانه: ﴿ **فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** (١٢٢)﴾ [طه] أى: وهداه إلى الحق فقد تقدم ذكر الضمير في "عليه" فأغنى عن إعادته في الفعل وهدى "فلم يقل هُداه" وهذه عادة العرب في كلامها. ومثل ذلك يقال في آيات سورة الضحى وقد أكد الزمخشري وابن هشام على أن الفاصلة كانت وراء ذلك الاستغناء "(٥١).

وقد تجد الاستغناء عن المفعول في الفاصلة بسبب مراعاة الفاصلة، وبسبب مراعاة العموم الذي يراد من الاستغناء عن المفعول كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُون﴾(٥٢) أى: تدعونه أو تدعون آلهة أخرى أو.... إلخ".

فحذف المفعول للعموم (٥٣).

-ومنه قوله سبحانه: "ألم يعلم بأن الله يرى"(٥٤) أى: يراه، أو يرى كل

شيء، ظاهرًا وباطنًا.

ومن ذلك قوله سبحانه: "لا تُبقى ولا تذر"(٥٥).

ألا: لا تبقى شيئًا تلقى فيها ولا تذره على ما هو عليه أو ولا تذر كافرًا بالله خارجًا عنها، فالعموم هو دلالة المحذوف(٥٦).

ومن أجل الفاصلة يتسغني عن المفعولات وعن حروف الجر وعن العائد ويستغني عن عناصر كثيرة في الجملة العربية، فعلية كانت أو أسمية فيحذف منها خبرها أو مبتدؤها أو يحذف شيء من متعلقات أحدهما. ويحذف من مقيدات الجملة الخارجية أدوات النفي أو غيرها مما رفضت بنت الشاطئ القول بالاستغناء فيه].

إن بنت الشاطئ – رحمها الله – لا تريد أن تتعامل مع النص القرآني على أنه نص لغوى من جنس كلام العرب، به كل خصائص الكلام العربي وصفاته؛ لأنها لا تريد أن تقول: إن بالقرآن إضمارًا، أو زيادة، أو حذفًا، أو استغناء، أو إبدالاً، أو تعددًا لوجوه قراءاته، أو تعددًا في لغات كلماته، أو تناوبًا بين حروفه، أو غير ذلك من خصائص الكلام العربي الفصيح.

نعم إننا نوافقها في أن النص القرآني قد خلا تمامًا من الخصائص اللهجية المعيبة ــ كالتلتلة أو الكشكشة أو الكسكسة أو العنعنة أو الفحفحة أو الاستنطاء ــ فكل ذلك والحمد لله لم ترد به الروايات الصحيحة في قراءة قرآنية أو رواية أو طريق ؛ لأن كل القراءات المتواترة الصحيحة المشهورة قد خلت تمامًا من هذه الخصائص اللهجية المعيبة.

لكنّ الخصائص اللغوية العامة التي شاعت في اللغة العربية على ألسنة متكلميها، قد ظهر منها في النص القرآني الكثير والكثير وورودها في النص القرآني دليل دامغ على كون هذا النص نصًا معجزًا، قد عجزتْ العرب أن تأتى بآية من مثلة أو بآية مثله، ولا شك أن الآية التي يريدها الله سبحانه فيها من خصائص هذا الكلام ما عرفه أرباب الفصاحة والبيان، ولكنهم عجزوا عن

المجيء بأي نص قريب أو شبيه بهذا النص المعجز.

ولا شك أن العرب إذا كان سيجري على ألسنتهم نص – ككل النصوص التي أبدعوها شعرًا أو نثرًا – فإنه سيكون نصًا من جنس كلامهم وبه كل خصائص هذا الكلام من حذف أو زيادة، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال، أو غير ذلك من ضروب التصرفات اللفظية وغير اللفظية في الجملة العربية. مع وصف المعيب منها أنه معيب أو قليل أو نادر أو غير فصيح، ووصف الفصيح منها أنه فصيح معروف مشهور.. إلخ.

رحم الله بنت الشاطئ؛ أرادت أن تخرج لنا مبادئ عامة لتفسير بياني للقرآن الكريم، لكنه تفسير يصعب علينا أن نحققه، وقد صعب عليها أن تطبق هذه المبادئ التي جاءت بها عند اختيارها للمواضع التي رأت أنها تحتاج إلى مراجعة ما كتبه القدامى حولها.

ثانيًا – موقف الشيخ سيد قطب – رحمه الله:

ويتحدث الشيخ سيد قطب رحمه الله عن علاقة الفاصلة، بموضوع السورة وعن تأثر كل منهما بالآخر تأثرًا إيجابيًا واضحًا فيقول عند تقديمه لسورة الحاقة: **﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾**

"هذه سورة هائلة رهيبة، قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة، وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس، وتطالعه بالهول القاصم، والجد الصارم، والمشهد تلو المشهد كله إيقاع ملح على الحس، بالهول آنًا وبالجلال آنًا وبالعذاب آنًا وبالحركة القوية في كل آن"(٥٧).

إن السورة بجملتها تلقى في الحسِّ بكل قوة وعمق إحساسًا واحدًا بمعنى واحد.. أن هذا الأمر، أمر الدين والعقيدة، جد خالص جازم حازم، كله جد لا هزل فيه جد في الدنيا وجد في الآخرة...."(٥٨).

ثم يفصل الشيخ رحمه الله ذلك فيقول:

"يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السور، والذي سميت به السورة " الحاقة" وهى بلفظها وجريها ومعناها تلقى في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار، وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلا، ثم استقراره مكينا، رفعه في مدة الحاء بالألف، وجده في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة " [٥٩]

ويبرز هذا المعنى في مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة.. ويبرز في مشهد القيامة المروع وفي نهاية الكون الرهيبة، وفي جلال التجلي..."[٦٠]

ويبرز في مشهد القيامة المروع، وفي نهاية الكون الرهيبة وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول..."[٦١]

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويح بقسم هائل، وفي تقرير الله لحقيقة الدين الآخرة..." [٦٢]

وأخيرا يبرز الجد في الإيقاع الأخير وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل فيه كائنًا من كان.. [٦٣]

إن أسلوب السورة يحاصر بالمشاهد الحية المتناهية وأسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها تتكفل بإلقاء المعنى المنشود، وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حى عجيب "[٦٤]

ثم يقول الشيخ رحمه الله: ويشارك إيقاع الفاصلة في السورة برنتـــه الخاصـــة، وتنوع هذه الرنة، وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحى العميق.. فمن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة **﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَـــا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾**، إلى الرنة المدوّية في الياء والهاء الساكنة بعدها، سواء كانت تاء مربوطة يُوقف عليه بالسكون، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقـــاع، طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة ومشاهد الفرحة والحسرة فـــي موقـــف

الجزاء، ثم يتغير الإيقاع، عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مدوية **﴿خذوه، فغلوه، ثم الجحيم صلوه﴾** ثم يتغير مرة أخرى عند تقدير أسباب الحكم، وتقدير جدية الأمر، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم والنون:

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)﴾.

وهذا التغير في حرف الفاصلة وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو العام، وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق، وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس في السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير [٦٥].

وعند عرض الشيخ سيد قطب لملامح سور الجزء الثلاثين الذي بدأ مع سورة النبأ نجده يقول:

" وهناك ظاهرة أخرى في الأداء التعبيرى لهذا الجزء هناك أناقة واضحة في التعبير، مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال في الوجود والنفوس، وافتنان مبدع في الصورة والظلال والإيقاع الموسيقى والقوافي والفواصل ؛ تتناسق كلها مع طبيعته في خطاب الغافلين النائمين السادرين، لإيقاظهم، واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات.... " [٦٦].

ونجد الشيخ – رحمه الله – يُقر بحقيقة وجود ظاهرة العدول في القرآن

الكريم، سواء كان هذا العدول عدولًا من لفظ إلى لفظ أو من صيغة إلى صيغة وسواء كان عدولاً بالتقديم أم بالتأخير أم بالحذف أم بالذكر، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالاستغناء أو بالعدول الاستغنائي ".

قال – رحمه الله – " والعدول أحيانًا عن اللفظ المباشر إلى الكناية، وعن اللفظ القريب إلى الاشتقاق البعيد وذلك لتحقيق التنغيم المقصود مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب ثم قال عن سورة النبأ: وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصورة وظلاله وموسيقاه ولمساته في الكون والنفس والدنيا والآخرة، واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرًا في الحس والضمير "(٦٧).

وعند تقديمه لسورة النازعات يذكر بعضًا من معانى "النازعات والناشطات، والسابحات، والسابقات، ثم يعود فيقول: وأيًا ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادها على هذا النحو، يُنشئ أولاً وقبل كل شيء هزة في الحس، وتوجسًا في الشعور، وتوفزًا وتوقدًا لشيء يهول ويروع... وتمشيًا مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة في تفصيل مدلولاتها ومناقشاتها، لنعيش في ظلال القرآن بموحياته وإيحاءاته على طبيعتها، فهزة القلب وإيقاظه هدف في ذاته يتحراه الخطاب القرآني بوسائل شتى". " وفي موضع آخر يشير إلى اهتمام النص القرآني بنظمه البديع بالفاصلة، وذلك عند حديثه عن تقديم الآخرة على الأولى – والتي انشغل بها كثير من المفسرين " – فيقول: ويقدم القرآن هنا نكال الآخرى على نكال الأولى.. لأنه أشد وأبقى، فهو النكال الحقيقى الذي يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده... لأنه الأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيس ولأنه يتسق لفظيًا مع الإيقاع الموسيقى في القافية بعد اتساقه معنويًا مع الموضوع الرئيس، ومع الحقيقة الأصيلة، مع التذكير بأن نكال الأولى كان أشد وأنكى فما بالك بنكال الآخرة".

وعند حديث الشيخ سيد – رحمه الله عن سورة التكوير يذكر أن هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة. الأولى حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل شامل.

والثانية حقيقة الوحي وما يتعلق به من صفات الملك الذي يحمله وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن المخاطبين بذلك ثم يقول: والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة، تنطلق من عقالها فتقلب كل شيء، وتنثر كل شيء وتهيج الساكن وتروع الآمن... وتهز النفس البشرية هزًا عنيفًا طويلاً...".

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطئمن إليه وتركن، لتلوذ بكنف الله وتأوي إلى حماه ".

ولولا أن في التعبير ألفاظًا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارئ في هذا الزمان لتركت السورة تؤدى بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها وبشاهدها ما لا تؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر أو لغة الكتابة "(٦٨).

وعند حديثه عن سورة الانشقاق يقول – رحمه الله -: وتبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكرير، ثم في سورة الانفطار ومن قبل في سورة النبأ.

ثم يقول: إنها سورة ذات مقاطع عديدة أربعة مقاطع... عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها سورة التكوير في جو عاصف، إنها سورة فيها لهجة التعبير المشنق الرحيم خطوة خطوة..." (٦٩).

وهذا هو السر في مجئ الأفعال: إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت... مسندة إلى غير فاعلها على سبيل المطاوعة.. " كما تقول بنت الشاطئ رحمها الله. إنّ سياق الآيات يحتاج إلى هذا الاستغناء عن الفاعل صراحة، لكى تستنطق هذا الإنسان في هدوء فيسأل سؤاله المتوع: مَنْ شق السماء أو مَنْ سيشق السماء، ومن سيجعلها تعلن خضوعها لربها ومَنْ سيمدها ومَنْ ومن، فتكون الإجابة إنه ربُ الوجود وموجده من عدم؟ !.

المبحث الثالث

الاستغناء في فواصل القرآن الكريم

دراسة نحوية أسلوبية



وتحت هذا المبحث الموضوعات الآتية:

١- الاستغناء عن حركة أو حرف في غير الفواصل (الاستغناء بمعنى الإبدال).

٢- الاستغناء عن حركة أو حرف بالسكون في الفواصل (الاستغناء بمعنى الإبدال).

٣- الاستغناء بحركة عن حركة (الاستغناء بمعنى الا بدال).

٤- الاستغناء عن جزم الفعل في الفواصل (الاستغناء بمعنى الترك).

٥- الاستغناء عن صيغة بصيغة أخرى في الفواصل (الاستغناء بمعنى الإبدال).

٦- الاستغناء عن حرف في غير الفاصلة (الاستغناء بمعنى الترك أو الحذف).

٧- الاستغناء عن حرف في الفاصلة = الياء التي هي أصل من أصول الكلمة (الاستعناء بمعنى الترك أو الإبدال).

٨- حذف ياء المتكلم الواقعة مضافًا إليه لأجل الفاصلة (الاستغناء بمعنى الحذف).

٩- الاستغناء عن ياء المتكلم: الواقعة مضافا إليه بعد الاسم (الاستغناء بمعنى الاكتفاء أو الا بدال).

١٠- الاستغناء عن المفعول به (الاستغناء بمعنى الترك أو الحذف).

١١- الاستغناء عن المفعول به الذي هو كاف الخطاب.

١٢- الاستغناء عن المفعول به، الذي هو ضمير "ها" الغيبة.

١٣- الاستغناء عن المفعول به عامةً.

١٤- الاستغناء بالمفرد عن الجمع.

١٥- الاستغناء بالإفراد عن التثنية.

١- الاستغناء عن حركة أو حرف في غيـر الفواصـل (الاسـتغناء بمعنى الإبدال):

إن العدول الاستغنائي قد حدث في النص القرآني في الفاصلة وفي غيـر الفاصلة سواء كان المستغنى عنه – المحذوف –حركة أو حرفـا أو كلمـة أو جملة... ".

فقد حذف – أو استغنى عن الحركة في غير الفاصلة في قـراءة قرآنيـة لقوله سبحانه: ﴿**وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)**﴾ **[الأنعام]**؛ حيث قرئت الآية بتسكين الراء "يشعرْكم".

وهذا التسكين هو استغناء عن حركة الضم اكتفاء بالسكون رغبـة فـي التخفيف أو لأن تسكين وسط الفعل لغة ماشية في العرب ومن ذلك قوله سبحانه "ويذرهم في طغيانهم" بتسكين الراء من يذر...إلخ.

٢- الاستغناء عن حركة أو حرف بالسكون في الفواصل (الاسـتغناء بمعنى الإبدال).

ومما تم فيه الاستغناء لمراعاة الفاصلة فقط كما قال السيوطي:

إيثار قراءة سبعية على قراءة سبعية أخرى مراعاة للفاصلة في ﴿**فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)**﴾ **[الجن]** وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)**﴾ **[الكهف]**.

لأن الفواصل في السورتين محركة الوسط وقد وردت الرشد ساكنة فـي موضع آخر وإن بروا سبيل الرُشْد".

ومما روعيت فيه الفاصلة أيضا تحريك "لهب" في "سيـصلى نـارا ذات لهب".

٣- الاستغناء بحركة عن حركة (الاستغناء بمعنى الإبدال):

أو العدول عن وجه إعرابي إلى وجه آخر، وذلك فيما يلي:

الاستغناء عن الرفع إلى النصب:

ورد ذلك في قوله سبحانه: **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠) [المزمل].**

أما الذين اختاروا قراءة الرفع فقد قال فيهم الألوسي: قال أبو زيد هي لغة بني تميم يرفعون ما بعد الفاصلة يقولون كان زيد هو الفاعل بالرفع وعليه قول قيس بن ذريح.

تحن إلى لُبنى وأنت تركتها وكنت عليها بالملأ أنت أقدر

قال أبو عمرو والجرمي أنشده سيبويه شاهدا للرفع والقوافي مرفوعة ويروى: (أقدرا)(٧٠):

وتعد هذه الآية شاهدًا على ورود الفواصل في غير رؤوس الآيات.

٤- الاستغناء عن جزم الفعل في الفواصل (الاستغناء بمعنى الترك).

قال النسفي: "فلا تنسى: على النهي، والألف مزيدة للفاصلة"(٧١)

قال القرطبي: "وقوله فلا: للنفي لا للنهي، وقيل: للنهي، وإنما أثبت الياء لأن رؤوس الآية على ذلك"(٧٢).

قال أبو حيان: "قد أمر الله نبيه ألا ينسى على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم أن النسيان ليس في قدرته فهو ينهى عن إغفال التعاهد، وأُثبتت الألف في "لا تنسى" وإن كان مجزوما بـ" لا" التي للنهي؛ لتعديل رؤوس الآي"(٧٣).

قال الألوسي: "وقيل: هو نهي لكن لم تحذف الألف فيه؛ إذ قد لا يحذف الجازم حرف العلة، وحسن ذلك هنا مراعاة للفاصلة"(٧٤).

ثم قال الألوسي: "نعم، قيل: رُسمت ألف الإطلاق ياء؛ لموافقة غيرها من

الفواصل، وموافقة أصلها، مع أن الإمام المرزوقي صرح بأنه عند الإطلاق ترد المحذوفة، وقيل: هو خبر أريد به معنى النهي على أحد التأويلين السابقين"[٧٥].

٥- الاستغناء عن صيغة بصيغة أخرى في الفواصل (الاستغناء بمعنى الإبدال):

ورد ذلك في قوله سبحانه:" واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا" [المزمل ٨] قال أبو حيان: "وحسن "تبتيلا" كونُه فاصلة"، ووافقه على ذلك الثعالبي[٧٦].

لكن القرطبي قال: "فإن قال أحد: كيف قال "تبتيلا" ولم يقل "تبتلا"؟ قيل له: لأن معنى تبتلَّ بتَّل نفسه، فجيء به على معناه؛ مراعاة لحق الفواصل[٧٧].

ومعلوم أن كلام القرطبي هذا، نقله عن الزمخشري في الكشاف، وهو بنصه في الكشاف ج٤ /١٧٧.

وقيل: إن المصدر "تبتيلا" جاء على غير طريق الفعل، وله نظائر من الكلام[٧٨]. فـ"تبتيل" محمول على معنى "تبتل"، لكن معناهما واحد؛ إذ إن معنى "تبتيلا" هو نفس معنى "تبتلا"، أي: أخلص له إخلاصًا، وأصل معنى التبتل الانقطاع وكذلك التبتيل؛ إذ يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة: قد تبتل، ومن هنا قال أبو إسحق: "وتبتل إليه، أي: انقطع إليه"[٧٩].

٦- الاستغناء عن حرف في غير الفاصلة (الاستغناء بمعنى الترك أو الحذف):

ومن الاستغناء عن الحرف في وسط الآية، حذف حرف العلة الواو أربع مرات في القرآن كله ومن ذلك قوله سبحانه: **(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (١١) [الإسراء].**

وقوله سبحانه: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)﴾** [الشورى].

٣- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦)﴾ [القمر].

مع التنبيه على حذف ياء المنقوص في الداع

٤- **﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾ [العلق].**

قال بدر الدين الزركشي: "لقد سقطت الواو من أربعة أفعال؛ تنبيها على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المتفعل المتأثر به في الوجود"(٨٠)

ففي قوله سبحانه: "سندع الزبانية"، فيه سرعة الفعل، وإجابة الزبانية، وقوة البطش، وهو وعيد عظيم ذكر مبدؤه وحذف آخره"(٨١)

٧- الاستغناء عن حرف في الفاصلة = الياء التي هي أصل من أصول الكلمة (الاستغناء بمعنى الترك أو الإبدال):

قال صاحب الإتحاف تحت عنوان مذاهبهم في ياءات الزوائد:

وهى هنا ياء متطرفة زائدة في التلاوة على رسم المصاحف العثمانية، وتكون في الأسماء نحو الداع، والجوار وفي الأفعال نحو " يأت " ويسر، وهى في هذا وشبهه لام الكلمة، وتكون أيضا ياء إضافة، في موضع الجر والنصب نحو دعائى، وأخرتنى، وتكون أصلية، وزائدة وكل منهما فاصلة، وغير فاصلة فأما غير الفاصلة: فخمس وثلاثون الأصلية منها ثلاث عشرة نحو: الداع، بالبقرة " ويأت" بهود وغير الأصلية منها اثنان وعشرون، وهى ياء المتكلم الزائدة نحو " إذا دعان " "واتقون يا أولى الألباب" "أنا ومن اتبعنى".

الاستغناء عن الياء الأصلية التي هي لام الكلمة (الاستغناء بمعنى الاكتفاء أو الإبدال):

ومن ذلك قوله سبحانه: **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)﴾[ق]**، وقوله سبحانه: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)﴾ [الفجر].**

وقد نص كثير من نحاتنا القدامى على أن الفواصل قد تحتاج إلى حذف

حركة أو حرف أو كلمة أو جملة.

قال الفراء: "وحذفت الياء من "يسرى" في قوله سبحانه: "والليل إذا يسر" لمشاكله رؤوس الآيات".

ثم قال: "وقرأ بعض القراء بإثبات الياء في "يسرى".

وقرأ آخرون بحذفها، وحذفها أحب إليَّ لمشاكلتها رؤوس الآيـــات، ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها"(٨٢)

لكن بعضا من العلماء ــ قديما وحديثا رفضوا أن يكــون الحــذف فــي الفواصل هو بسبب مراعاة مناسبة رؤوس الآيات، واستدلوا على صحة قــولهم بما ورد في القرآن الكريم من صور الحذف في غير فاصـــلة، أو رأس آيـــة، ورأوا أن أسباب الحذف ليست مراعاة رؤوس الآيات، بل هناك أسباب أخـــرى خفية في كل موضع وراء الحذف الذي ورد فيه.

وكان على رأس هؤلاء من القدامى ابن قدامة، ومـــن المحـــدثين بنـــت الشاطيء(٨٣) وغيرهما؛ حيث اتهموا غيرهم بالعجلة في قولهم بأن الحذف فـــي مثل هذه المواضع كان لمراعاة الفاصلة، وبحثوا عن أسرار تخص كل موضـــع من المواضع التي ورد فيها الحذف ولست أدرى سببا علميا يمنع من القول بأن من أسباب الحذف مراعاة الفاصلة، فهذه لغة العـــرب، وهـــذه طـــريقتهم فـــي استخدامها.

وإذا وجدنا أسرارا خفية وراء الحذف في بعض المواضع فـــي فواصـــل القرآن الكريم فلا مانع من القول بها، ولكن ذلك لا ينافي القول بأن الفاصلة قـــد استفادت من هذا الحذف وكانت وراءه في بعض المواضع، وهذه معجزة مـــن معجزات هذا النص العظيم، وسوف نستعرض صورا من الاستغناء عن اليـــاء في فواصل القرآن الكريم ليس على سبيل الحصر:

٨- حذف ياء المتكلم الواقعة مضافًا إليه لأجل الفاصلة (الاســتغناء بمعنى الحذف)

وأما الفاصلة: فست وثمانون الأصلية منها خمس وهى المتعال " بالرعد

ـ والتلاق" و"التناد" بغافر، و"يسر" "وبالواد" بالفجر، وغير الأصلية، هـي يـاء المتكلم الزائدة في إحدى وثمانين نحو: "فارهبون" "فاتقون" "ولا تكفـرون" "فـلا تنظرون" "ثم لا تنظرون".

"فأرسلون" "ولا تقربون" "أن تفندون".

فالجملة مئة وإحدى وعشرون ياء.

فإذا أضيف إليها "تسألن" بالكهف تصير مائه واثنتين وعشرين"[٨٤]

ثم قال صاحب الإتحاف: واختلفوا في إثباتها وحذفها، ولهـم فـي ذلـك أصول:

فنافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي، وكذا أبو جعفر يثبتون ما أثبتوه منها في الوصل دون الوقف، مراعاة للأصل والرسم، وافقهم الأعمـش واليزيـدي والحسن وابن كثير وهشام، وخلف ويعقوب يثبتون في الحالين علـى الأصـل، وهى لغة الحجازين ويوافق الرسم تقديرًا إذا ما حذف لعارض كالموجود.

وابن ذكوان وعاصم وكذا خلف يحذفون في الحالين تخفيفا وهـي لغـة هذيل.

قال الكسائي: العرب تقول: الوال والوالى والقاض والقاضى؛

إذن فالمسألة ــ أصلا ــ ترجع إلى أمرين مهمين:

الأول: هو أن حذف مثل هذه الياء سواء كانت حرفا أصليا في بنية الكلمة مثل: (القاض ــ الداع ــ التناد ــ التلاق)، أو كانت زائدة عن بنية الكلمة مثـل (دعائى ــ نذرى ــ عقابى ــ يسري ــ ننجى ــ أدري)، وغيـر ذلـك مـن الأسماء والأفعال عند إسنادها إلى ياء المتكلم أقول إن حذف مثـل هـذه اليـاء مرجعه إلى القراءات القرآنية، حيث وردت قراءات بحذف هذه اليـاء، ووردت قراءات بإثباتها وقفا ووصلا أو وقفا فقط أو إجراء للوقف مجـرى الوصـل أو العكس.

الثاني: أن هذه القراءات صحيحة السند وقد جاءت بالحـذف وبالإثبـات

موافقة لرسم المصحف ولو احتمالا، وليس في هذه القراءات خروج على لغات العرب؛ لأن بعض لغات العرب تميل إلى الحذف في استخدامها لهذه الألفاظ، وبعض لغات العرب تميل إلى الإثبات في استخدامها لهذه الألفاظ، وكل ذلك موجود فاش على ألسنة العرب، ومألوف في الجزيرة العربية آنذاك.

فإذا قلنا: إن سبب الحذف هو السرعة مثلا كما نقلنا عن الزركشي، ونقل الآخرون عنه دون عَزْو له أو أي سبب آخر، فسنرى من يقول لنا: وماذا تقولون في قراءة الإثبات وهى صحيحة ومتواترة، سبعية أم عشرية؟ هل تقولون إنها تفيد البطء وعدم الرغبة في الحدوث تمشيًا مع مبدأ المخالفة؟ وأقصد من كلامي هذا أن الإلحاح في البحث عن علة معنوية، والبحث عن سر خفي من أسرار قراءة الحذف سوف يُوقع في منزلق آخر:

هو عدم الأخذ بقراءة الإثبات، أو تفضيل قراءة الحذف عليها، أو محاولة البحث عن تخريج آخر يوائم بين القراءتين، وقد يكون هذا هو أيسر الطريقين وأسهلهما، لكن القول بأن سبب الحذف هو مراعاة الفاصلة، عند الوقف، وأن من قرأ بالإثبات فقد ساوى بين الوصل والوقف وأن ذلك كله أمر صوتي له علاقة وطيدة بنغم الآيات وبجرسها وانسياب موسيقاها، كل ذلك لا يوقفنا في منزلق تفضيل قراءة على قراءة أو الحكم على قراءة سبعية أو عشرية بالرفض أو اللحن.

٩- الاستغناء عن ياء المتكلم: الواقعة مضافا إليه بعد الاسم (الاستغناء بمعنى الاكتفاء أو الا بدال):

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)﴾ [غافر ٥]

وجاء في سورة الرعد: (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) [٥].

وجاء في سورة ص: (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) [٥].

قال الألوسي ج٢٤ /٤٤: "وحذفت الياء لكونها فاصلة، وقد يظن ظـان عجول أن هذا التعليق من الألوسي هو تعليق متسرع، ليس وراءه كلمة العلماء أو خبرة البلغاء".

لكن الحقيقة أن القول بأن سبب حذف الياء في مثل هذه المواضع هـو لمشاكلتها رؤوس الآيات ليس قولا متسرعا، بل هو الخبرة بكلام العرب الـذين نزل القرآن بلسانهم؛ فالعرب كانوا يحذفون مثل هذه الياء إذا جاءت فـي آخـر كلامهم، وبعضهم كان يثبتها، وقد جاء الذكر الحكيم بالحذف والإثبات لمثل هذه الياءات فوافقت قراءات القرآن لهجات العرب في كل مكان فإذا عدنا إلى سورة غافر نطالعها لوجدنا أن المقطع الأول منها ينتهي بفاصلة الآيـة الثالثـة "إليـه المصير"، ثم يبدأ المقطع الثاني بالآية الرابعة، وفاصلتها جاءت بحرف مد قبـل حرف الروي هو الألف "في البلاد".

وكذلك جاءت فاصلة الآية الخامسة بحرف مد قبل حرف الـروي هـو الألف أيضا: "فكيف كان عقاب"، وكذلك فاصلة الآية السادسة "النار".

إذن فقد توحدت الفواصل في الحرف السابق لحرف الـروي فـي هـذا المقطع من السورة، وهو المقطع الذي وردت فيه الفاصلة التي هي مثار حديثنا "فكيف كان عقاب".

فإذا عدنا نسأل أنفسنا: لماذا حذفت الياء من "عقاب" إذن؟

كان الجواب أن هذه الآيات الثلاث تحمل نغما موسيقيا موحدا قبل حرف الروي هو مد الألف، ولا تحتمل نهاياتها مدا آخر بعد حرف الروي الذي هـو حرف الفاصلة، فكان حذف الياء هنا أجمل لكي يساعد علـى انـسياب الـنغم الموسيقى للآيات؛ إذ إن إثبات الياء تلاوة في الوقف قد يؤدى إلى عدم الإحساس السريع بمتعة هذا النغم المتألف.. في البلاد... كان عقاب... أصحاب النار.

وهكذا نلحظ دقه الألوسي في قوله: "إن حـذف اليـاء جـاء لمراعـاة الفواصل".

ولا يمنع ذلك من إضافة أي دلالات أخرى قد تظهر لبعض العلماء فتتعدد وتتنوع الأسباب ولا تتعارض.

ومن حذف المضاف إليه = حذف ياء المتكلم بعد الاسم في:

قوله تعالى: "نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار، فذكر بـــالقرآن من يخاف وعيد" أي: "يخاف وعيدى".

فقد حذفت الياء من "وعيدي"، والتي هي ياء المتكلم وبقيت الكسرة دلـــيلا عليها، وبرغم أن الآيات السابقة على هذه الآية جاءت على روي الراء: وإلينـــا المصير ـــ ذلك حشر علينا يسير إلا أن الحذف هنا قد أفاد الفاصلة وأفادت منه، لأن مبنى الفواصل على الوقف، والوقف سيكون بالسكون، وإذا بقيت الياء لوقفنا عليها بمدة طويلة في الزمن لأنها حرف مد، وإذا حركناها جاءت حركتها فتحة "وعيدى"، وكل ذلك لا يتماشى مع نغم الفواصل المجاورة، والتي جاءت حرفـــا صحيحا ساكنا في الوقف، فاحتاج الوقف إلى حرف صحيح ساكن من مخـــرج قريب من مخرج بقية الفواصل المجاورة لهذه الفاصلة، فحذفت اليـــاء، لتبقـــى "الدال" هي الروي أو حرف القافية في هذه الآية، فتتناغم مع بقيـــة الفواصـــل المحيطة في لون موسيقى جميل بديع عند الوقف والوصل، هذا أمر، وأمر آخر لا يقل أهمية عنه حول حذف ياء المتكلم من بعض الألفاظ في القرآن الكـــريم، مما يسمى في كتب القراءات ياءات الإضافة أو ياءات الزوائد".

فقد تكرر حذف ياء المتكلم كثيرًا من الاسم أو الفعل الذي اتصلت به في وسط الآية وفي فاصلتها، وتكرر حذف الياء من "الـــداعى"، فتـــصبح "الـــداع" "الوادى"، فتصبح "الواد" و"الجوارى"، فتصبح "الجوار".

وكذلك حذفت الياء من تدرى لتصبح "تدر" في أكثر من موضـــع مـــن سورة القمر في قوله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨)﴾** وقـــد تكررت أكثر من مرة في هذه السورة وقد جاءت في غيرها من السور، وكانت مراعاة الفاصلة وراء مثل هذا الحذف، إلى جانب لطائف ونكت أخرى، يهتـــدي

إليها بعض العلماء؛ بفضل ما من الله عليهم من فتوحات وخواطر بشرية.

بيد أن علماءنا ـ رحمهم الله ـ كانوا قد نصوا على أن حذف الياء في مثل هذه الألفاظ لغة فاشية على ألسنة العرب في الجزيرة العربية؛ حيث كانوا يحذفون الياء ويُبقون الكسرة دليلا عليها، وكانوا يحملون حذف الياء الأصلية عند الحذف على ياء المتكلم، سواء أكان ذلك في اسم أم في فعل.

وقد نص على ذلك الإمام أبو عمرو الداني في كتابه " التيسير في القراءات السبع ص ٦٩ -٧١، وكذلك ابن الجزري في كتابه النشر باب ياءات الزوائد، وغيرهما من أهل الدراية بهذا العلم وقواعده وأصوله، وقد كرر هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء العربية أن حذف هذه الياء هو عادة العرب في نطق مثل هذه الكلمات في لغة فاشية في قبائل العرب كانوا يختلسون كسر الياء، فيتخففون من مدة الياء إلى كسر الحرف السابق عليها، وقد يبالغون في هذا الاختلاس؛ حتى يبدو للسامع أن الياء لا وجود لها، وأن آخر الكلمة ليس ياء، بل هو "دال" في مثل "الذين جابوا الصخر بالواد"، بدلا من "الوادى".

فيسكنون الدال بدلا من كسرها أو ذكر الياء بعدها.

١٠- الاستغناء عن المفعول به (الاستغناء بمعنى الترك أو الحذف): أو حذف ضمير ياء المتكلم بعد الفعل:

فقد حُذف الضمير "ياء" المتكلم من قوله سبحانه: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** (٧٨) **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** (٧٩) **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** (٨٠) **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** (٨١)﴾ [الشعراء ٧٨-٨٠].

فقد حذفت ياء المتكلم في "يهدينى" لتصبح "يهدين"، وكذلك "يشفين " "ويسقين"، وكانت العلة الظاهرة لهذا الحذف هي مراعاة الفواصل؛ وذلك لأن إطالة الصوت ومده بالياء، لا يساعد على إبراز الجمال الموسيقى مثلما يساعد عليه التخفف من هذا المد بحذف الياء والاستغناء عنها بالكسرة، فتتابع الآيات في موسيقى جميلة متماثلة في زمن نطق كل فاصلة.

لكن المتتبع للمعاني الخفية وراء حذف هذه الياء هنا في هـذا الموضـع بالإضافة إلى ما سبق، يجد أن بعض العلماء رأى أن الحذف في هذه المواضـع هو الرغبة في الإيجاز في العبارة والإسراع على الغرض المقصود من حديثـه عليه السلام، وهو ذكر صفات ربه سبحانه وتعالى والثناء عليه، وقد كان ذكـر المنعم في بادئ الآية مسوغًا لهذا الحذف، وليس من البلاغة أن يُذكر المحذوف إذا دلت عليه قرينة واضحة تدل عليه؛ إذ يكون حذفه أولى وأفضل من ذكـره، بل إن إعادة الذكر هنا في مثل هذا الموضع يعد ضربًا من ضـروب الإخـلال بفصاحة الكلام.

قال آخرون: إن السياق يتطلب الحذف لأنه مقام إبراز عظمة الله سبحانه وإبراز قدرته اللانهائية في مقابل ضعف هذا المخلوق غير الكامـل، الـذي لا يقوى على نفع نفسه أو ضرها، فكان من كمال الفصاحة ألا يذكر هـذا العبـد الضعيف أمام قدرة الله سبحانه، فناسب الحذف جمال الذكر.

وقد أفاد علماء البيان من ورود ضمير الفصل في مثل هـذه المواضـع: "الذي خلقني فهو يهدين"، "والذي هو يطعمني ويـسقين"، "وإذا مرضـت فهـو يشفين"؛ حيث أشاروا إلى شيء مما سبق أن أشرت إليه؛ فقد نصوا على أن ذكر ضمير الفصل قبل الأفعال "يهدين" "يطعمني" "يشفين"، هو إشارة إلى أن الأصل في حدوث هذه الأفعال من مصادرها "الهداية، الإطعام، السقاء، الشفاء"، لا تكون من العبد؛ بل إنها من الله سبحانه وتعالى، فالمُطعم الحقيقي هـو الله، والـشفاء الحق لا يكون إلا من الله، والهداية الحقة لا تكون إلا من الله سـبحانه، وهكـذا ذكر ضمير الفصل في هذه المواضع لكي يؤكد على أن هذه الأفعال لا ينبغي أن تنسب إلى العبد؛ بل إن أصل حدوثها لا يكون إلا من الله سبحانه.

ونحن نؤكد على ذلك أيضا بأن عدم ذكر ضمير ياء المتكلم مـع هـذه الأفعال هو للإشارة إلى أن هذه الأفعال نتيجتها عامة وليست خاصة، وأن ذكر الضمير معها قد يوهم بأنها خاصة بالمتكلم فقط.

١١- الاستغناء عن المفعول به الذي هو كاف الخطاب:

ورد ذلك في سورة الشعراء ٧٢-٧٣ في قولـه سـبحانه: (قـال هـل يسمعونكم إذ تدعون "أو ينفعونكم أو يضرون حيث حذف المفعول من " تدعون " ومن " يضرون " وظاهر الأمر أن مراعاة رؤوس الآيات هو السبب في الحذف، وهذا صحيح، لكن مراعاة الفواصل وإن كانت هي السبب الظاهر لكنـه لـيس السبب الوحيد وراء حذف المفعول هنا.

فقد رأى بعض العلماء أن حذف المفعول هنا أمر ألح عليه الـسياق، فقد ذكر المفعول مع النفع فجاء النفع موطن تخصيص، وكان الـضر مـوطن الإطلاق فهذه الآلهة _ الأصنام_ أو غيرها _لا تنفع ولا تضر، وإن كان ظاهر أمرها تنفع أصحابها _ أو هكذا يظنون _ فهى لا تقوى على نفـع غيـرهم أو ضرهم، فلماذا تعبدونها؟!!

ومن ذلك أيضًا ما ورد في في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾

قال الألوسى: حذف المفعول – الكاف في " قلى "فأصلها: ومـا قـلاك " رعاية للفاصلة:

وقد وردت تعليقات كثيرة وخواطر عديدة حول الاستغناء عن المفعـول من الفعل " قلى "هنا في هذه الآية فمن قائل " إن الله لم يرد أن يجعل ضمير اسم نبيه صلى الله عليه وسلم متصلا بفعل كهذا الفعل " قلى " وإن كان منفيا " وما " قلى " لأن حب الله لرسوله حب إلهى لا محدود ومثل هذا الحب لا يحتمل القلى أو شبهة وروده إن الله سبحانه رحيم برسوله فجعل ضمير اسمه صلى الله عليه وسلم مع التوديع لا مع القلى، وفرق بين الفعلين في الدلالة.

ومع وجاهة هذا القول ولطافته، لكن نظرة متأنية لفواصل سورة الضحى تجعلنا نقر أن هذه الفواصل تأبى وجود الكاف مع الفعل " قلى " لأنها فواصـل

متناغمة على حرف المد الألف والضحى –والليل إذا سجى –ما ودعك ربك وما قلى– خير لك من الأولى _ ولسوف يعطيك ربك فترضى –ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى "

فكيف نتوقع أن تجيء الكاف مع الفعل " قلى " إن ذلك إن حدث فسوف يصيب الآيات بخلل موسيقى كبير لا يجبره إلا حذفها والاستغناء عنها.

إذن فأول ما يجب الانتباه إليه في حذف الكاف هنا هو تناغم الآيات وجمال موسيقاها ثم يتلو ذلك خواطر العلماء حول ذلك الاستغناء

إن حذف المفعول به والاستغناء عنه بما يفهم من السياق سواء كان ضميرا من ضمائر النصب ياء المتكلم – كاف الخطاب – هاء الغيبة –أو غير ذلك ظاهرة فاشية في فواصل القرآن الكريم وسوف أختم حديثى فيها بما ورد حول قوله سبحانه " بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه – إن شاء وتنسون ما تشركون " الأنعام ٤١

فنحن نلاحظ أن الجملة الاعتراضية "إن شاء " قد جاءت قبل الفاصلة وكان يمكن أن تجيء فاصلة وكان يمكن أن يذكر مع الفعل " شاء " مفعوله لكن النظم القرآني عدل عن ذلك كله موضع جملة " إن شاء " في أدق موضع وأكمله وأمكنه، وحذف من الفاصلة متعلقتها رعاية للنغم الموسيقى الذي بنيت عليه هذه الآيات التي وردت فيهن هذه الآية حيث كانت النون هي حرف الروي المتكرر في هذا المقطع ثم حذف مفعول المشيئة من الفعل "شاء" الوارد في "إن شاء " لأن ظاهر الأمر الذي يبدو لنا أن الآية مع قصرها قد استخدمت من وسائل إطالة الجملة – هذا الاعتراض الذي نلاحظه في جملة "إن شاء " ولإحداث معادلة بين ذكر وسائل لإطالة الجملة، والميل إلى استخدام وسائل أخرى لتقصيرها أو اختصارها أو اقتصارها فقد استخدمت الآيات الاستغناء أو العدول الاستغنائي حيث استغنت الآية عن متعلق الفاصلة " وتنسون ما تشركون " أى تشركون به " وكذلك استغنت الآية عن مفعول فعل المشيئة في إن شاء ".

قال أبو حيان: وتتبعت ما جاء في القرآن وكلام العرب من هذا التركيب – إن شاء لو يشاء... فوجدته لا يكون محذوفا إلا من جنس الجواب مثل لو شاء الله لجمعهم على الهدى – أى لو شاء أن يجمعهم على الهدى لجمعهم عليه"[٨٥].

ولكن السيوطى يرى أن كثيرا من الأفعال قد تبدو عند النظرة الأولى أن لها مفعولا وأن مفعولها محذوف غير أن النظرة المتأنية تقضى أن بعض هذه الأفعال ليس له مفعول ولا يحتاج في سياقه إلى مفعول برغم أنه مـــن الأفعـــال المتعدية، لكن السياق جعله لازما وقد ذكر السيوطى كلامه ذلك عـــن تعرضـــه للفعل" شاء – يشاء " وتصرفاته، وذلك عند ما يقول فـــي الإتقـــان ج٢/١٣٩، ١٥٥:-

وقد كثر حذف مفعول المشيئة دون سائر الأفعال لأنه يلزم مـــن وجـــود المشيئة وجود المشاء فالمشيئة المستلزمة لمضمون الجواب لا يمكن أن تكون إلا مشيئة الجواب، ولذلك كانت الإرادة مثلها في اطـــراد حـــذف مفعولهـــا ذكـــره الزملكانى والتنوخى في الأقصى القريب قالوا وإذا حذف بعد لو فهو المذكور في جوابها أبدا وأورد في عروس الأفراح قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكـــة فـــإن المعنى لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكته

قال ابن هشام جرت عادة النحويين أن يقولوا بحذف المفعول اختـــصار واقتصارا ويريدون بالاختصار الحذف لدليل ويريدون بالاقتصار الحذف لغيـــر دليل ويمثلونه بنحو كلوا واشربوا " أى أوقعوا هـــذين الفعلـــين وتـــارة يتعلـــق بالإعلام بمجرد إيقاع الفعل للفاعل فيقتصر عليها ولا يذكر المفعول ولا ينوى إذ المنوى كالثابت ولا يسمى محذوفا لأن الفعل ينزل لهذا القصد منزلة مالا مفعول له........

وتارة يقصد إسناد الفعل إلى فاعله وتعليقه بمفعوله فيـــذكر أن نحـــو لا تأكلوا الربا ولا تقربوا الزنا وهذا النوع الذي إذا لم يذكر محذوفه، قيل محذوف.

وقد يكون في اللفظ ما يستدعيه فيحصل الجزم بوجوب تقديره نحو أهـــذا

الذي بعث الله رسولا وكلا وعد الله الحسنى وقد يشتبه الحال في الحذف وعد له نحو قل ادعوا الله أو أدعوا الرحمن قد يتوهم أن معناه نادوا فلا حذف أو سمو فالحذف واقع وللحذف ثمانية شروط منها وجود دليل حالى أو مقالى ومنها عقلي، أو عادة، أو غير ذلك من تصريح ومنها الصناعة النحوية كقولهم لا أقسم لأنا اقسم لأن فعل الحال لا يقسم عليه

١٢- الاستغناء عن المفعول به، الذي هو ضمير "ها" الغيبة:

ورد ذلك في قوله سبحانه:

"وأضل فرعون قومه وما هدى "طه٧١"

أى وما هداهم " لكن الفاصلة ما كانت ستمتع الأذن لو ذكر معها الضمير، حيث إن سورة طه كما عرفنا قد بنى حرف الروى فيها كلها على الألف أو الفتحة "ولن يحدث الإلف الموسيقى إذا تغيرت الفواصل من: وما هدى – إلى وما هداهم" وبالإضافة إلى هذا التناغم الموسيقى البديع نجد أن الحذف وراءه أسرار خفية لطيفة لا تقل في جمالها عن جمال الموسيقى الظاهرة في رؤوس الآيات.

فإطلاق المفعول في " وما هدى " إمعان في التهكم والسخرية من فرعون الإله الذي يفترض أن يمتلك أسباب الهداية كامتلاكه أسباب الإضلال، إن فرعون لم يهدأ حدا قط من قومه، بل لم يهد نفسه التي بين جنبيه وإله هذا حاله لهو إله عاجز عن أن يحمى حتى نفسه بل حماية الآخرين وهذا أمر يسلبه أبسط مقومات الألوهية

١٣- الاستغناء عن المفعول به عامةً:

أ- حذف مفعولى الفعل زعم:

ورد ذلك في قوله سبحانه: **(أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)** [القصص، أي: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولين اختصارًا وإيجازًا ومشاكلة

لرؤوس الآيات، قال ابن هشان: الأولى أن يقدر تزعمون أنهم شركاء بدليل قوله سبحانه:﴿ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)** ﴾ [الأنعام].

ولأن الغالب على زعم ألا يقع على المفعولين صريحًا بل على أنّ وصلتها، ولم يقع في التنزيل إلا كذلك"[٨٦].

ومن ذلك قوله سبحانه:﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يوقف على وظنوا فيكون المفعولان محذوفين بعد ما لهم من محيص.

ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ أى يظنون الكتاب أماني[٨٧].

ب- حذف مفعولي أفعال اليقين:

ورد ذلك في قوله سبحانه:﴿ **وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[٨٨]

أي: إن كنتم تعلمون أن ذلك خير لكم، ويجوز أن يكون الفعل متعديًا إلى مفعول واحد على أنه بمعنى المعرفة، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة اللازم أى: إن كنتم من ذوى العلم وهو الظاهر[٨٩].

- ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٩٠] أى: لا يعلمون أنهم ليسوا أولياءه"[٩١]
- ومنه قوله سبحانه: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٩٢] أى: سوف تعلمون أن لكل نبأ مستقرًا " [٩٣].

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾[٩٤]، أى: يرى أن ما قاله حق، أو ما سمعه من القرآن باطل، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية"[٩٥].

ج – حذف جملة الخبر أو هي من مسائل التنازع:

جاء ذلك في قوله سبحانه:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُون﴾[٩٦]

فقوله يستكبرون: إما أن يكون خبرًا لـــ "إن " على اعتبار أن خبر كان محذوف،

وإما أن يكون خبر كان" على أن خبر "إن" محذوف فهى من مسائل باب التنازع على قول من يجيز التنازع بين الحروف وغيرها العلج "[٩٧].

د- حذف العائد الجار والمجرور:

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور ٣٣.

على أن العائد محذوف أى غفور رحيم لهم أو غفور رحيم لهن أو لهم ولهن".

وقد رد أبو حيان كون العائد لهن، لأن فيه إبقاء الجملة، من غير عائد على " من" ولم يجوزّ أن يكون العائد الفاعل المحذوف لأن المصدر مضاف إلى المفعول أى: من بعد إكرههم إياهن، لأن النحويين لم ينصوا على كونه من الروابط، وهى مسألة تصح عند الشهاب، ولكن المختار عنده قول جمهور النحاة، ويجوز أن يكون الجواب محذوفًا أى: فعليه وبال إكراههن"[٩٨].

د - حذف العائد المجرور:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[٩٩]، وفي الكلام حذف العائد، أى: فقل له، أو من المنذرين له، ويجوز أن يكون الجواب محذوفًا أى: "فلا عليَّ من وبال ضلاله"[١٠٠].

هـ - حذف جملة كاملة:

ورد ذلك في قوله سبحانه: ﴿ قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر ٥٨]. قال القرطبي وإن في الكلام حذفًا، والتقدير: "إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم" للقرطبي ٣٦/١٠.

١٤- الاستغناء بالمفرد عن الجمع:

ورد ذلك في قوله سبحانه:

"ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله علـيهم مـن النبيـين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " النساء ٦٩

ومن ذلك أيضا قوله سبحانه: وجعلنا للمتقين إماما " الفرقان ٧٤

ومن ذلك قوله سبحانه: "أم أنتم جميع منتصر" القمر ٤٤

وقوله سبحانه: سيهزم الجمع ويولون الدبر " أى الأدبار. القمر ٤٥

أما قوله سبحانه: "وحسن أولئك رفيقا" النساء ٦٩

فسياق الآيات وفواصلها منتهية بما يناسب صيغة رفيقا" من حيث انتهائها بياء مد بعدها حرف منصوب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء].

هكذا جاءت موسيقى السورة كلها مبنية على هذه النغمة الجميلة... أشد تثبيتا... أجرا عظيما صراطا مستقيما... حسن أولئك رفيقا.

فماذا لو جاءت "رفيقا" على غير ذلك بل جاءت "رفقاء"؟

فكيف تكون موسيقى الآيات؟!!

ونستخلص مما مضى:

أن النص القرآني عمد إلى الاستغناء برغم جواز الصيغة المختارة والصيغة المستغنى عنها؛ حيث يجوز – نحويا – "رفيقا" و"رفقاء"، وإن كانت الحالية تجيزهما، لكن التمييز يرشح الإفراد.

أن اختيار رفيقا قد حقق جرسا موسيقيا لا تحققه الصيغة المستغنى عنها أن دلالة "رفيقا" جائزة لغويا في سياقها، فهي مفردة ولكنها تدل على ما يدل عليه اللفظ المستغنى عنه بها "رفقاء"، أى: حسُن كل واحد منهم رفيقا للآخر أو رفيقا لغيره

وقد وردت لذلك نماذج كثيرة استعمل النص القرآني المفرد وهو يقصد به الجمع كما في: "ثم نخرجكم طفلا"، وغير ذلك كثير في فواصل القرآن الكريم

وغير فواصله.

أن صيغة فعيل مما يستوي فيه المفرد والجمع المؤنث والمذكر

أما قوله سبحانه: ﴿أم يقولون نحن جميعا منتصر، سيهزم الجمع ويولون الدبر"القمر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر ٤٤-٤٦].

قال القرطبي: "قال الله: نحن جميع منتصر، ولم يقل: منتصرون؛ لأجل رؤوس الآي".

وهذا تعليق موجز من القرطبي، وهو نفس تعليق كثير من المفسرين حول هذه الآية، لكنه تعليق على قصره وإيجازه، إلا أننا نستنبط منه الكثير والكثير فلأن رؤوس الآي لها إيقاع مطرد يحمل نغمة موسيقية ذات لمسة فنية عالية، وقد تشابكت رؤوس الآيات مع بعضها لإنجاز هذه اللمسة الفنية العالية، ولا يصح تحت أي سبب من الأسباب إحداث أي خلل في هذه النغمات؛ لأن ذلك سيؤدى إلى انفراط عقد الموسيقى الذي نتج عن اتساق جميع رؤوس الآيات في تكوين هذه النغمات العذبة المناسبة لمعانيها.

١٥- الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو:

نحو قوله تعالى : (فَلا يُخْرِجَنَّكَ منَ الجَنَّة فَتَشْقَى) [طه ١١٧]

التعبير بالإفراد بدلا من المثنى أمرٌ قد أقرته لغتنا؛ اعتمادا على فهم السامع أو القارئ، واعتمادا على قرائن كثيرة تحيط بالنص أو يحتويها ذلكم النص، إن مبدأ الاستغناء — الاستغناء بالمفرد عن المثنى — أمر ورود في اللغة من قديم، واستعملته على ألسنة متكلميها؛ أدباء وغير أدباء، شعراء وغير شعراء...

فمثلا الجسم الإنساني يشتمل على أعضاء مزدوجة؛ كالعينين والأذنين واليدين والرجلين وغيرها، وكلها مما يسمى بالمثنى، ولكن اللغة في أساليبها قد تستعملها مفردة، ويتقبلها السامع دون ملاحظة أو اعتراض، فاهمًا في كل حالة

أن المتكلم إنما يعنى المثنى، وهكذا وقد استعمل المتنبي ذلك في شعره مستحلا ذلك مستغنيا بالمفرد عن المثنى معتمدا على عادة العرب في فهم ذلك واستيعابه، وذلك حيث يقول:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

أي: خير من تسعى به قدمان؛ لأن الإنسان يسعى ويمشي على قدمين.

ومن ذلك قوله أيضًا:

وتعجبني رجلاك في النعل؛ إنني

رايتك ذا نعل إذا كنتَ حافيا

فنحن نلاحظ أنه ثنى "الرجلين" "رجلاك"، ولكنه أفرد النعل، فقال: "وتعجبني رجلاك في النعل".

إن المتنبي يسخر ممن يخاطبه، بل ويمكن فهم ذلك على أنه هجاء، وهو في سبيل ذلك استخدام طرقًا في التعبير، أباحتها له اللغة ولكن كثيرا من الشعراء، لم ينتبهوا إلى ذلك.

وكأن المتنبي قد استفاد من قوله الله سبحانه: (فَلا يُخرجَنكَ من الجَنَّة فَتَشْقَى)، فالخطاب في بداية الآيات موجه إلى آدم وحواء معا.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)**﴾ [طه].

فالخطاب في سياق الآيات للمثنى، ولكن الله سبحانه جعله موجها لمفرد هو "آدم"، وهنا انبرى المشتغلون بتفسير النص القرآني في جمع الحجج التي يسوغون بها ذلكم التعبير، وذلكم الاستغناء فمن قائل: إن الإخراج من الجنة سيقع عليهما لكن الشقاء سيقع على آدم فقط، لأنه هو الكادُ والكادح والمسئول

عن حواء وعن معيشتها ومسكنها ومأكلها ومشربها وملبسها.

ومن قائل: إن في ذلك إشارة إلى أن الشقاء والنصب في الأسرة من نصيب الزوج، وهذا إشارة إلى أن النفقة من واجب الزوج، وهي مفروضة عليه، وبسببها يشقى الزوج في الأرض ليريح زوجته.

ومن قائل: إن الخطاب في الآيات قبل هذه الآية وبعدها موجه إلى آدم، وهو مخصوص به، ولذلك جاء بعد هذه الآية مباشرة استمرار الخطاب آدم: (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى).

وقال الحسن: هو شقاء الدنيا، وفي الدنيا يرى ابن آدم ناصبًا...

لكن الطبري والقرطبي كان لهما تعليق وجيه، يعيدنا إلى بداية حديثنا عن طبيعة اللغة العربية، وأنها تسمح بذلك، وأن إعجاز النص القرآني يتمثل في انسجامه مع ما تسمح به اللغة وتبيحه لمتكلميها، فينتبه إليه المبدعون من أدباء هذه اللغة، ويجدون النص القرآني قد جعل ذلك من معجزاته البيانية؛ حيث يجرى على سنن العرب في استعمالاتها.

قال القرطبي – ناقلا عن الطبري –: "ولم يقل فتشقيا لأن ذلك معروف في اللغة"...ا.هـ[١٠١]

ومما له صلة بذلك أيضا تعليق علمائنا على إفراد الجنة في قوله سبحانه: "ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا" [الكهف ٣٥]،

وكان سياق الآيات هكذا: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف].

قال الزمخشري: "فإن قلت: لمَ أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت: أفرد لأن

معناه: ودخل ما هو جنة ماله جنة غيرها، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وُعدَ المتقون فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منها".

وعلق أبو حيان على ذلك بقوله: "ولا يتصور ما قاله؛ لأن قوله: "ودخل جنته" إخبار من الله تعالى بدخول ذلك الكافر جنته، فلا بد أن القصد هو دخـــول هذا الكافر إحدى جنتيه؛ إذ لا يمكن أن يدخلهما معًا في وقت واحد"[١٠٢]، وكـــلا التعليقين له وجاهته في النص، ولا تعارض بينهما؛ لأن كلا منهما وجد مخرجًا لورود السياق بالجنة مرة مثناه ومرة مفردة.

الخاتمة والنتائج

وبعد،

فقد اتضح لنا أن ظاهرة الاستغناء ظاهرة قديمة قدم اللغة العربية، وهي ظاهرة تدل على ثراء هذه اللغة وقدرتها على مجاراة المعاني بالألفاظ المناسبة؛ حذفًا وزيادةً.

وقد أثبت البحث أن هذه الظاهرة قد نالت حظا غير قليل في تناول النحاة لها في مؤلفاتهم؛ حيث وردت هذه الظاهرة في كتاب سيبويه في مواضع عديدة أشرنا إلى بعضها في بداية هذا البحث، وتبعه في ذلك عدد غير قليل من علماء النحو الذين جاءوا بعده.

وقد ورد الاستغناء في مؤلفات علمائنا القدامى بعدة معان؛ على رأسها الحذف إلى جانب دلالة الاستغناء على الترك، أو الإبدال، أو الاكتفاء، وقد نقلنا نماذج لكل واحدة من هذه الصور.

وقد أثبت البحث عدم الاختلاف بين النحاة والمفسرين في استخدام هذه الظاهرة، وأن كلا الطرفين يقر بوجودها في كلام العرب شعرًا ونثرًا وفي القرآن الكريم أيضًا.

وقد أثبت البحث أن هناك علاقة واضحة بين الاستغناء وفواصل القرآن الكريم، وقد دلل البحث على صدق هذه المقولة بنماذج من فواصل القرآن تشمل خمس عشرة صورة، تندرج تحتها عشرات المواضع.

ومن هذه الصور: الاستغناء عن حركة من الاسم أو الفعل، مما يُسمى بـ"طرح العلامة الإعرابية".

ومنها: الاستغناء عن علامة وإبدالها بالسكون.

ومنها: الاستغناء عن علامة إعرابية بعلامة إعرابية أخرى، بعد تغيير السياق؛ ليتناسب مع العلامة الجديدة.

ومنها: الاستغناء عن حرف الياء الذي هو أصل من أصول الكلمة، من أجل الفاصلة.

ومنها: الاستغناء عن الضمير "ياء المتكلم" الواقع مفعولا به لأجل الفاصلة.

ومنها: الاستغناء عن الضمير "ياء المتكلم" الواقع مضافًا إليه لأجل الفاصلة.

ومنها: الاستغناء عن المفعول به وتحت هذا صور كثيرة للأنماط التي يجيء عليها المفعول به ضميرًا — ياء متكلم، كاف خطاب، هاء غيبة — أو اسمًا ظاهرًا.

ومنها: الاستغناء عن المفرد بالمثنى.

ومنها: الاستغناء عن المفرد بالجمع.

ومنها: الاستغناء عن صيغة بصيغة أخرى .... كل ذلك لأجل الفاصلة.

ومنها: الاستغناء عن جملة اسمية إلى جملة فعلية أو العكس.

ومنها: الاستغناء عن البناء للفاعل إلى البناء للمفعول.

كل ذلك لأجل الفاصلة..

أما الذين رفضوا هذه الظاهرة، فقد ناقش البحث أراءهم، وبين أن الحق في غير ما يقولون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مراجع البحث

١- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر لأحمد بن محمد الدماطي البنـا تحيقيق علي علي محمد الضباع القاهرة ١٣٤٥هـ.

٢- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، القـاهرة مكتبة الحلب١٩٥١ ط٣.

٣- الأشباه والنظائر في النحو لجلال الدين السيوطي حيـد آبـاد الـدكن ١٣١٦هـ.

٤- الأصول لابن السراج تحقيق الدكتور عبد الحـسين الفتلـي، مؤسـسة الرسالة ١٩٨٨م.

٥- الإعجاز البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف. ط٢.

٦- الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات عبد الرحمن بن الأنباري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة الاستقامة ط١ ١٩٤٥.

٧- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي مطبعة دار الفكر ط٢ ١٩٨٣.

٨- البرهان في علوم القرآن لمحمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمـد أبي الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية، ط١ ١٩٥٧م.

٩- البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات بن الأنبـاري تحقيـق د.طه عبد الحميد مراجعة مصطفى السقا دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٩م.

١٠-التأويل النحوي د. عبد الفتاح أحمـد الحمـوس مكتبـة الرشـد ط١ ١٩٨٤ الرياض.

١١-التبيان في إعراب القرآن للعكبري المكتبة التوفيقية ط١، ١٩٧٩م.

١٢-حاشية الجمل على تفسير أبي السعود المطبعة المصرية د.ت.

١٣-التفسير البياني عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف.

١٤-تفسير البيضاوي تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة دار الفكر بيروت ١٩٩٦م.
١٥-الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الكتب القاهرة ١٩٣٨م.
١٦-الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني تحقيق محمد علي النجار مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥. ط٢
١٧-الدر المصون لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨-روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، مطبعة الحلبي بمصر ودار الفكر ببيروت.
١٩-شرح المفصل لابن يعيش عالم الكتب بيروت د.ت.
٢٠-في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، الدار العربية بيروت ١٩٦٨ ط٤.
٢١-الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ط. الخانجي، ط. ٣، ١٤٠٨ هـ، ١٩٩٨م،
٢٢-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل تفسير الزمخشري، المكتبة التجارية الكبرى ط١ ١٣٥٤هـ.
٢٣-لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف.
٢٤-المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن تحقيق على النجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٩٦٩م.
٢٥-معاني القرآن للفراء تحقيق محمد علي النجار طبعة دار الكتب المصرية د.ت.
٢٦-مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيق مازن مبارك دار الفكر بيروت لبنان، ١٩٧٩م.
٢٧-نظرية النحو القرآني أحمد مكي الأنصاري، دار المعارف د.ت.

الهوامش

١. لسان العرب مادة غني ص ٣٣٠٨ دار المعارف.
٢. الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ط. الخانجي، ط. ٣، ١٤٠٨ هـ، ١٩٩٨م، جـ ١/ ٢٥، جـ ٢/١٢١.
٣. الخصائص جـ٢/٢٦٧-٢٧٢.
٤. السابق جـ٢/٢٦٧-٢٧٢.
٥. الإنصاف جـ/ ٤٨٥ مسألة ٦٨، جـ١ / ٩٣.
٦. الأشباه والنظائر ١/ ٧٨ وقد عقد السيوطي هنا بابًا للاستغناء من ص ٧٦ ى- ٨٢.
٧. الكتاب جـ١/ ٢٩٥.
٨. السابق ١/ ٧٤ -٧٦، مع مراعاة هوامش الإحالات حول هذه الأبيات في الكتاب هامش ١، ٢، ٣ من ١/ ٧٥ -٧٦.
٩. الكتاب جـ١ / ٢٩٢ والخزانة جـ٢ / ٤٠٨ واللسان: حيا.
١٠. الكتاب جـ١ / ٢٤٦، ٢٧٧ والخزانة جـ٢ / ٤٠٨ واللسان: حيا.
١١. السابق جـ٢ / ٢٩٢.
١٢. الكتاب جـ٢ /٣٩١، ٣٩٢.
١٣. الكتاب جـ١/ ٢٧٥.
١٤. الكتاب جـ١ / ٢٧٢.
١٥. لسان العرب مادة: عسر.
١٦. معاني القرآن للفراء، جـ٣/ ٢٧٤.
١٧. معانى القرآن للفراء جـ٣/٢٤٣.
١٨. الأصول لابن السراج جـ١ /٧٥، ٧٧.
١٩. شرح المفصل لابن يعيش جـ١/١٤ وسوف نشير عند مناقشة د.بنت الشاطئ إلى نماذج للاستغناء عن الفاعل أو المفعول، لنؤكد بها على وجود علاقة إيقاعيه بين الاستغناء عن بعض العناصر وبين إيقاع بعض الفواصل.
٢٠. شرح المفصل جـ١/ ٩١، جـ٢ / ٩٣.

٢١. البرهان في متشابه القرآن ص ٦٦٩ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٩.
٢٢. أقصد السياق بمعناه الشامل الواسع.
٢٣. التبيان في إعراب القرآن ج: ١ ص: ٨٦
٢٤. التبيان في إعراب القرآن ج: ١ ص: ٢١٠
٢٥. الإتقان ج: ١ ص: ٤٤٧
٢٦. الإتقان ج: ١ ص: ٤٤٧
٢٧. الإتقان ج: ١ ص: ٢٣٥
٢٨. الإتقان ج: ١ ص: ٤٤٧
٢٩. الإتقان ج: ١ ص: ٥٥٩
٣٠. الإتقان ج: ٢ ص: ١٥٢
٣١. البرهان في علوم القرآن ج: ١ ص: ٣٠٤
٣٢. البرهان في علوم القرآن ج: ٢ ص: ٢٣٩
٣٣. البرهان في علوم القرآن ج: ٢ ص: ٢٤٠
٣٤. الاكتفاء هو معنى من معاني الاستغناء كما مضى.
٣٥. البرهان في علوم القرآن ج: ٣ ص: ١٥، ١٦
٣٦. البرهان في علوم القرآن ج: ٣ ص: ١٠٥
٣٧. ج: ١ ص: ٢٤٢
٣٨. التبيان في إعراب القرآن ج: ١ ص: ١١٥، وانظر تفسير البيضاوي ج: ٢ ص: ٣٠٣
٣٩. ج: ٣ ص: ٤٧٢
٤٠. تفسير البيضاوي ج: ٤ ص: ٤٢٣
٤١. تفسير البيضاوي ج: ٥ ص: ١٧٤
٤٢. تفسير القرطبي ج: ١ ص: ٤٠١
٤٣. تفسير القرطبي ج: ١٣ ص: ٣٥٨
٤٤. تفسير أبي السعود ج: ١ ص: ٢٣١
٤٥. التفسير البياني ص٥٤٢.
٤٦. السابق.

٤٧. التفسير البياني ص٢٤٢.
٤٨. نظرية النحو القرآني أحمد قلى الأنصاري.
٤٩. الإعجاز البياني للقرآن الكريم ص٢٤٢.
٥٠. المحتسب جـ٢/ ٢/٣٥٦، وحاشية الشهاب ٨/٣٥٤.
٥١. مغنى اللبيب ٨٣٠، والتبيان في تفسير القرآن ١٠/ ٣٦٨ وانظر التبيان في أعراب القرآن جـ٢/ ٢٩٢ وانظر البحر المحبط جـ٨/ ٤٨٥ الكشف ٤/ ٣٦٣.
٥٢. سورة الأنعام الآية ٤٠.
٥٣. البحر ٤/ ١٢٧.
٥٤. العلق: ١٤. والبحر المحيط جـ٨ / ٤٩٤ وحاشية الشهاب ٣٨٠/٨٠.
٥٥. المدثر ٢٨.
٥٦. القرطبي ٧٧/١٦ وحاشية الشهاب جـ٨/٢٧٦.
٥٧. السابق.
٥٨. السابق.
٥٩. في ظلال القرآن ح٣٠ /٣٦٧٠ وما بعدها
٦٠. السابق
٦١. السابق
٦٢. السابق
٦٣. السابق
٦٤. في ظلال القرآن ح٣٠/ ٣٦٧١
٦٥. في ظلال القرآن مجلد٦ جزء ٢٩/ ص ٣٦٧٦.
٦٦. في ظلال القرآن جـ٣٠ / ٣٨٠٢.
٦٧. في ظلال القرآن جـ٣٠ / ٣٨٠٦.
٦٨. في ظلال القرآن جـ٣٠ / ٣٨٣٦.
٦٩. السابق.
٧٠. روح المعاني جـ٢٩/١١٤.
٧١. النفي جـ٢/ ٣٣٢.
٧٢. القرطبي جـ٢٠/١١٩.
٧٣. البحر المحيط ج٨، /٤٥٨.
٧٤. روح المعاني جـ٣٠/١٠٥.

٧٥. السابق.
٧٦. الثعالبي جـ٤/٣٥٢.
٧٧. القرطبي جـ١٩/٤٢ وراجع الكشاف جـ٤/١٧٧.
٧٨. الاتقان جـ٢ /٣٧١
٧٩. لسان العرب بتل.
٨٠. البرهان ٧/٢٠٥.
٨١. السابق.
٨٢. معاني القرآن للفراء ٣/٢٦٠ وطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٥٥.
٨٣. سبق أن أشرت إلى البحوث الخاصة بذلك، وانظر أيضا: الإعجاز البياني للقرآن بنت الشاطئ، دار المعارف مصر طبعة ثانية ١٩٧١م ص ٤٩ وما بعدها.
٨٤. اتحاف فضلاء البشر ١/٣٤٥-٣٤٦.
٨٥. البحر المحيط ٧/٤٩٠.
٨٦.مغنى اللبيب تحقيق ما زن المبارك وزميله: ٧٧٤. وحاشية الشهاب: ٧/ ٨١، والبحر المحيط ٧/١٢٨ والبيان في غريب إعراب القرآن جـ٢ / ٢٣٥.
٨٧.البقرة ٧٨ حاشية الشهاب جـ٢ / ١٩٠ والتبيان في إعراب القرآن ١/٨١.
٨٨.البقرة ١٨٤.
٨٩.الدر المصون ورقة ٦٦٦، التبيان في إعراب القرآن جـ١/ ١٥١، والبحر المحيط جـ٢ / ٣٨.
٩٠.الأنفال ٣٤.
٩١.البحر المحيط جـ٤ / ٤٩١.
٩٢.الأنعام ٦٧.
٩٣.والبحر. وحاشية الشهاب ٥/١٩٥.
٩٤.النجم ٣٥.
٩٥.البحر جـ٨ / ١٦٧، تفسير القرطبي جـ١٧/١١٢ حاشية الشهاب ٨/١١٦، البيان في غريب إعراب القرآن جـ٢/ ٣٩٩.
٩٦.الصافات ٣٥.

٩٧. انظر التأويل النحوي عيد الفتاح حموز ص

٩٨. البحر ٦/ ٤٥٢، وحاشية الشهاب ٣٧٨/٦ الكشاف جـ٣ / ٦٧.

٩٩. النمل ٩٤.

١٠٠. حاشية الشهاب٧/ ٦١، والبحر ١٠٢/٧ ومن ذلك آية البقرة ٩٧، ٢١١، والعنكبوت ٥.

١٠١. القرطبي جـ١١/ ٢٤٣، دار الكتاب العربي. الطبير ١٦/ ٢٢٣= دار الفكر مجلد ٩.

١٠٢. البحر المحيط ١٢٨/٦.